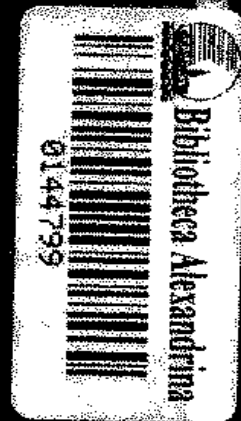


السُّلُوكُ النَّاصِحُ

بَيَانُ الْأَخْلَاقِ فِي كِتَابِ الْأَخْبَارِ

تأليف
حجة الدين
أبراهيم بن خلف القسبي
دمشق ٥٦٨ هـ

تقديم وتحقيق
أحمد بن محمد بن أحمد



السُّؤَالَاتُ

سِيَاوِزِ الْمَطَاعِ فِي عِلْوَانِ الْأَتْبَاعِ

تأليف
خجّة الدين
أبو عبد الله بن خلف الصّقلّي
«توفى ٥٦٨ هـ»

تقديم وتحقيق
أيمن عبد الجبار البحيري



الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

٩٩ / ١٦٦٥	رقم الإيداع
977-5727-34-0	الترقيم الدولي I.S.B.N



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران

مدينة نصر - ت: ٢٦١٠١٦٤

السُّؤَالَاتُ

سِئَالُ الْمَطْلُوعِ فِي عِلْمِ دِرَازِ الْأَيْتَانِ

تأليف
حجة الدين
أبو عبد الله بن خلف الصقلاني
«توفى ٥٦٨ هـ»

تقديم وتحقيق
أيمن عبد الجبار البخيري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا خير الخلق أجمعين .
أما بعد ، فإن التراث الإسلامي هو النتاج الفكري لحركة وتأمل العقل
البشرى المسلم عبر القرون ، من لندن عصر النبوة إلى عصر شيخ الإسلام
البيجوري^(١) شيخ الجامع الأزهر المتوفى رحمه الله (١٢٧٧ هـ - ١٨٥٦ م) .

واختيارنا لعصر شيخ الإسلام البيجوري رحمه الله لأن يكون نقطة
الارتكاز للنظر إلى ما قبله جاء بناءً على عدة اعتبارات منها :

- أنه رحمه الله آخر من كتب بمنهج من داخل نسق ومنظومة السلف
الصالح (ولا يمكن أن نظلم من جاء بعد البيجوري رحمه الله ، ولكن باعتباره
علامة على عصره)

- إن هذه الفترة من الزمن هي اللحظة الفارقة في تاريخنا : لحظة عصر
الخدوي إسماعيل ؛ الذي حاول أن يجعل مصر قطعة من أوروبا ، وبداية رحلة
التغريب .

يقول شيخنا الأستاذ الدكتور على جمعة (حفظه الله) :

إن هذا التراث الذي بين أيدينا - في الحقيقة - لا بد لنا أن نفهمه وكثير من
الناس يرفضون التراث رفضاً تاماً ، وهذا الرفض رفض وجداني فقط ؛ لأنه لم
يفهم التراث أصلاً حتى يرفض ما فيه ، وكثير من الناس يقبلون التراث قبولاً
تاماً وهذا أيضاً قبول وجداني ؛ لأنه لم يفهم ما فيه أيضاً ، نعم هو خير من
الأول الذي رفض لأنه ينتمي إلى آبائه الصالحين وإلى سلفه الأماجد ، لكن لا بد
علينا أن نفهم التراث^(٢) .

ويرى أستاذنا الدكتور على جمعة أن التراث مكتوب بشفرة لا بد من حلها
لكي نفهم هذا التراث ، وقد طرح عدة أمور يرى فيها الحائل بيننا وبين النص
التراثي ، فمنها :

(١) انظر : المدخل ، د. على جمعة ص (١٠) .

(٢) انظر المدخل ص (١٥) .

- إدراك التصور الكلى الذى كان سائغاً عند الكاتبيين للتراث عبر الزمان
والمكان ، وهى تصورات كانت قائمة فى أذهانهم وحاكمة على كتاباتهم حتى
شاعت هذه التصورات وكأنها مسلمات .

- وأيضاً ؛ فقد العلوم الخادمة ، فكل علم من هذه العلوم كان يعتمد على
بنية فكرية ؛ هى عبارة عما حصله العالم من درس فى مختلف العلوم الأخرى .
- ومنها ؛ قضية الصياغة اللغوية والمنطقية ، والتي تحتم علينا أن ندرك
فلسفة اللغة وعلاقتها بما فى الأذهان وبما فى الأعيان ؛ وقضية المصطلحات ،
فلكل عصر ولكل مذهب ولك علم مصطلحاته الدقيقة التى إذا ما فقدتها القارئ
المعاصر أو طالب العلم أو الباحث فإنه لا يدرك كثيراً مما أمامه من كتابات
القوم .

إن قضية تراث الأجداد من القضايا التى تطرح على الساحة الآن بقوة ،
وسوف تظل فترة من الزمن فى أوراق الباحثين ، وذلك راجع إلى سؤال يدور
فى الأعماق : كيف كنا ؟ وكيف أصبحنا ؟! ، هو بحث عن الهوية التى تاهت
مفرداتها ، والسؤال البديل هو : كيف نفهم أبعاد قضيتنا فى إطارها الصحيح ،
ومناهج تراثنا دون الوقوف على مسأله الملازمة لعصر أجدادنا .

إن أول هذه الأمة قد صح بأمر ومحددات منهجية استمدت من خصائص
كتاب الله وتطبيق وتنزيل على الواقع وظروف هذا الواقع وملابساته .

ويتميز النص الذى بين أيدينا بالثراء ، وبالمنهج ودقته وبإمعان النظر
يزيد إدراكنا لثقة المنهج الذى عنى ابن ظفر بتحديدده والالتزام به منذ البداية .

يحدد المؤلف إسناداته المرجعية فيقول :

١- وصدرتها بأى من التنزيل المحكم .

٢- وأحاديث عن المصطفى ﷺ .

٣- إلى ما تلا ذلك من منثور الحكم وموزونها .

٤- وأبكار الآداب وعيونها .

كذلك يعرف المؤلف كل سلواناته تعريفاً وافياً ، ويلتزم به فى اختياره
للحكم والقصص التى يستشهد بها على آرائه .

واختيار عنوان الكتاب أصلاً اختيار يتفق مع منهجية المؤلف ، وفهم
العنوان سيكون مفتاحاً من المفاتيح الرئيسية للنص .

فالكتاب كتب أساساً بغرض "تسليية" الموجه له ، والموجه له هنا هو

"المطاع" أى الحاكم أو الملك ، فالكتاب يستهدف تسلية الملك وهو ملك معين محدد ، هذا الملك يتعرض له "عدوان الأتباع" ويعيش فى محيط الفتن والمؤامرات ، وهو بحاجة لنوع من الرياضة الروحية لتتسبه متابعه .

هنا يتقدم ابن ظفر بسلواناته مدركاً قيمتها من حيث إنها روضة للقلوب والأسماع ، ورياضة للعقول والطباع .

تحقيق المخطوط :

عندما عثرت على هذا النص وهو كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) لحجة الدين عبد الله بن محمد بن ظفر الصيقلى - رحمه الله - فى مكتبة المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالقاهرة .

لقد انتباهى اسم هذا الكتاب ، وهو يعرف أيضاً بـ (السلوانات) فعكفت على قراءته باهتمام وأعجبنى أسلوب الكاتب وطريقة تناوله لموضوعه ؛ فعزمت على تحقيقه ، وكان البحث عن مخطوطات له ، وبالفعل وجدت له فى دار الكتب المصرية عدة مخطوطات منها ما هو تام كامل ، قد يكون مخطوطاً أو اثنين ، والباقى ناقص .

وكانت أفضل النسخ على الإطلاق نسخة مكتبة (أوسكريال) بإسبانيا المنقولة عن نسخة دار الكتب المصرية ، فשמرت له عن ساعدى الجد وقمت بإعداد نسخة منضبطة قدر الإمكان ، وفى حالة تعثرى فى قراءة لفظة أو إشكال فى فهم عبارة كنت أرجع إلى باقى المخطوطات لعلى أجد ضالتي ، وذلك كان قليلاً ما يحدث لجودة النص ، ولم نبخل بالسوقت أو الجهد حتى كانت الصورة الماثلة أمامكم ، والله الموفق .

وصف المخطوط :

- مصدره : دار الكتب المصرية . تصنيف [أدب رقم ١٤١٤] ميكروفيلم (٣١٨٣٧) عدد الورق : (١٦٦) ورقة من القطع المتوسط ، عدد الأسطر (١٦) سطرأ ، نوع الخط نسخ عادى وجميل ، بخط ناسخ

عملنا فى هذا الكتاب :

- ١- ضبط النص وتقويم العبارة ، وتصحيح التحريف والتصحيف ، وإن ندر ذلك
- ٢- عزو الآيات ، وتخريج الأحاديث .
- ٣- الفهارس اللازمة للكتاب .

وختاماً ؛ نسأل الله أن نكون قد وفقنا فى هذا العمل ؛ لا يسعنا إلا أن نشكر
كل من ساعدنا بالوقت والجهد على إتمامه وإخراجه بهذه الصورة .

وآخر دعواتنا أن الحمد لله رب العالمين

القاهرة

عصر يوم الاثنين

الخامس والعشرون من شعبان لسنة (١٤١٩هـ)

الموافق الرابع عشر من ديسمبر ، لسنة (١٩٩٨م)

أبو محمد

أيمن البحيرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

اسمه ولقبه : هو عبد الله بن محمد بن الظفر الصقلى ، المنعوت بحجة الدين، وهو أحد المنتميين لحقل العلم والأدب فى التراث العربى الإسلامى .

ميلاده ونشأته وطلبه للعلم : ولد بصقلية عام (٤٩٧ هـ) ، وكان رحالة يهوى السفر وطلب العلم ، انتقل من مكة التى نشأ بها إلى مصر فى صباه ، ثم إلى المهديّة بشمال إفريقيا ، ثم إلى حلب ماراً بمصر مرة أخرى ، ثم توجه إلى حماة واستقر فيها ، وعمل بالديوان ، وكان راتبه نون الكفاف ، ولم يزل يكابد الفقر إلى أن توفاه الله .

مكائنه : كان عالماً أديباً شاعراً ، متعمقاً فى علوم الدين واللغة والنحو ، وقد أطلق عليه لقب (حجة الدين) لتصانيفه العميقة فى العلوم الدينية .

تصانيفه : فى العلوم الدينية له "التشجين فى أصول الدين" و (أساليب الغاية فى أحكام آية) و (ينبوع الحياة) وهو تفسير للقرآن الكريم .

وفى الأدب والشعر له أشعار رفيقة فى الحب ، وله أيضاً (شرح مقامات الحريرى) .

كذلك كان أديباً بارعاً فى القص والحكى ، يجمع بين قصص التاريخ الحقيقية، وقصصه التى يبدعها هو نفسه . وله "أنباء نجباء الأبناء" الذى يورد فيه أنباء عشرة من الصحابة ، وبعض أبناء ملوك العرب فى الجاهلية ، إضافة إلى أنباء ملوك الفرس .

وفاته : توفى رحمه الله عام (٥٧٠ هـ) .

مصادر ترجمته : - وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج٤ ، ص (٣٩٥) .

- كشف الظنون (١٢٦) .

- إيضاح المكنون (١ / ٦٨ ، ٢ / ٢٤٤) .

- الأعلام للزركلى (٦ / ٢٣٠ ، ٢٣١) .

- سير أعلام النبلاء (٥١٥٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ الْفَقِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ
ابْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ مَنْ نَفَقَ الْمَلِكُ عَلَى اللَّهِ عَنْهُ
أَنْ اشْكُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا اسْتِيَ بِالْإِسْبِ
الْفَاخِرَةُ وَأَنْ أَحْمَدَ لَأَعُوذُ بِخَيْرِ أُنْدِيَا وَخَيْرِ
الْأَسْرَةِ نَعْمَ اللَّهُ جَاعِلُ الصَّبْرِ لِلْفَتْحِ ضَمِينًا
وَالْحَبِيبِ فِي الْمَكْرَمِ كِنَا الَّذِي ضَرَبَ
دُونَ اسْرَارِ الْأَقْدَارِ حِجَابًا مَسْتَوْرًا وَقَضَى

أَنْ

صورة الغلاف من مخطوط دار الكتب المصرية

الوثيق
والعين حنة العراشي

الكنود
الملائح

العشور
بعض مملوفاً بغيره

يا

الاشاب
الجمام

الرحمن
جمع الحمد

ان الخير على القطن حجراً مجوراً . واوطى
 المستلين لمشاياه بساطاً مهوراً وثيراً .
 وانظما المتيزمين بقضاياه حصاناً
 كوداً عثوراً فقال سبحانه فعسى ان
 نكر هو اشياً ويحصل الله فيه خير كثير
 وصلى الله على المرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً
 وداعياً الى الله باذنه وسيراً جامعاً بين
 سيدنا محمد المصطفى وسلم سلكاً كثيراً
ويعبد فان مما ارضيت
 اليه اضراب الاغراب وانتاب الاكثاب
 ان اظفرني الله سبحانه وله المنه والحمد
 بمواخات مقبل عثرات السادة الثرات
 وسبل الانفس ذوى الاحز الحاسدين حسرات

الصفحة الأولى من المخطوط

انه من لامثال ثم تفضض من ضرب اليد
 وخرج بابل من فوزه كساح وانواعه بن
 طاح انتهى قال ابو عبد الله العبد صغير
 اليه العتيق بن محمد بن ابي محمد بن ظفر مكي
 عفا الله عنه والحمد لله قد انتهت بعبة
 ما المرذت الى تهيئة ما اوردت وانا
 اعوذ بالله من عذاب الاعذاب كما اعوذ به
 من عذاب الاعجاب واستغنيه عن عول سلوان
 كما استغنيه من عول الجواب واستدفع به
 فساد الخطاب كما استدفع به كساد الضوب
 والتوب اليه فهو الرجم التواب
 ثم كتاب سلوان المطاع وعدواه
 الانتاج وهو الحمد وعونه



الصفحة الأخيرة من المخطوط

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة آية ٣٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

مَقَدِّمَاتُ

قال عبد الله الفقير إليه الغنى به محمد بن أبي محمد بن ظفر عفا الله عنه:
إنَّ شُكْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِأَسْنَى الْمَلَابِسِ الْفَاخِرَةِ ، وَإِنْ حَمْدَهُ لِأَعْوَدُ بِخَيْرِ الدُّنْيَا
وَخَيْرِ الْآخِرَةِ .

فالحمد لله جاعل الصبر للنجاح ضمينا ، والمحبوب في تجرؤه كميناً ، الذى
ضرب دون أسرار الأقدار حجاباً مستوراً ، وقضى أن الخير على القطن لا يزال
حجراً محجوراً ، وأوطى المستسلمين لمشايه مهوداً وثيراً^(١) ، وأمطى^(٢)
المتبرمين بقضايه كبوداً^(٣) عنوراً^(٤) ، وقال سبحانه ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً
وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٩] .

وصلى الله على المرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه
وسراجاً منيراً ، سيدنا النبی المصطفى محمد وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ، فإن مما أفضى إليه اضطراب الاغتراب ، وانتياب الاكتئاب^(٥) ، أن
أظفرننى الله وله الحمد ، بمواخاة مقيل عثرات السادات السراة ، ومسل أنفس
الحسدة حسرات ، سيد السادة ، وقائد القادة ، أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم
على بن علوى القرشى ؛ بارك الله له فى الخير الذى ألهمه كسبه وكان وليه
وحسبه . فلقد أنزل الدنيا بدرك منزلتها ، وكوشف بشرك منزلتها ، فعمل للبقاء
لا للفناء ، وجمع للجد لا للاقتناء ، وجاد لله لا للشاء ، وأخى للتعاون على
البر والتقوى ، لا للتهافت فى هوى الهوى ، وزان الرياسة بنفس لاتضيق بنازلة

(١) خضوعاً وليناً .

(٢) أى أحكم عليهم .

(٣) أى ضيق عليهم .

(٤) أى أتعتهم وأهلكهم .

(٥) الحزن الشديد .

نرعا ، ولا تصغى إلى الوشاة سمعا ، ولا تدنس بطبع طبعا ، ويحلم لا يرفع
الغضب لديه رأسا ، وحزم لا تخاف الإنابة معه بأسا ، فالحمد لله الذى أباحنى
من إخائه حمى منيعا ، وحرما آمنا ، ومرتعا مريعا ، ووردا منيعا ووردا ينيعا

فَقَحْنُ بِقُرْبِيهِ فِيمَا اشْتَهَيْتَنَا وَأَحْبَبْتَنَا وَمَا اخْتَرْتَنَا وَشَيْتَنَا
يَقِينَنَا مَا تَخَافُ وَإِنْ ظَنَنْتَنَا بِهِ خَيْرًا أَرَأَيْتَ إِنْ يَقِينَنَا
نَمِيلُ عَلَى جَوَابِيهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى أَيْتَنَا

وأقسم لولا أن الشكر عقد شرعى ، وحق مرعى ، لقررت عينه بطى
مانشرت والتورية عما إليه أشرت ، إذ كان - وقانى الله بعده ، ولا أبقانى بعده
- يرى أن الشكر فى وجوه آلائه ندوب^(١) ، والمدح من خواص أوليائه ذنوب ،
فلا زالت يد التوفيق له ناصره ، وخطى الشوائب عنه قاصرة ، ومكانة العلاء
به فاخرة ، ومكادة الأجداء له داحرة ، آمين آمين آمين ، وصلى الله على سيدنا
محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه الأكرمين ، وسلم عليه وعليهم فى
العالمين ، ولما كانت الهدايا تزرع الحب وتضاعفه ، وتعضد الشكر
وتساعفه^(٢) ، أحببت أن أهدى له هدية فائقة ، تكون عنده نافعة^(٣) ويقدره لائقه ،
فلم أجد ذلك إلا العلم الذى شغفه حبا ، والحكمة التى لم يزل بها صبا^(٤) ،
والأدب الذى استوعبه مولوداً وكسباً ، واستغمره جلباباً وقلباً ، فأتحفته "بأساليب
الغاية فى إحكام آية" . وهو كتاب ضمنته أحد عشر أسلوباً تقضى بسالكها إلى
العلم بالظاهر ، والمستتبط من قول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ
إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة : ٦] .

ثم شفحته "بالمسنى لاستشفاف المعونة والاشراف" ، وهو كتاب استوعبت

(١) أى تقصير .

(٢) تعاونه وتساعده .

(٣) نافعة ومجدية .

(٤) مولعاً .

فيه مسائل نيزك التاليفين الشريفين مشفوعة بنخب براهينها ، ثم عززتها "بدر الغرر" ، وهو كتاب انتظمت فيه درر "أنباء نجباء الأبناء" فأودعته منها ما عز مطلبه ، وبهرت حكمته ، وحسن أدبه ، ثم رتبت بكتابي هذا ، وهو كتاب عمدت فيه إلى أمثلة؛ استأثر خواص الملوك ببضاعتها ، ومنعتهم الغيرة عليه من إذاعتها ، فتوسعت بالتعبير بألفاظي عنها ، والتجبير بعلمي لها ، والتفنن بقوى فطنتي فيها، توسعا لا يحظره شرع ، ولا ينبو عنه سمع ، حتى إذا عادت أهلها بدورا رائعة، وأضت وديها^(١) غناء يانعة ، نفثت في صورها أرواح الأخلاق الزكية وكسوت جسمها حلال الآداب الملوكية ، وتوجت رؤوسها تيجان الهمم الأبية ، وقلدت عواتقها سيوف المكابد الحربية ، وصدرتها بأي من التنزيل المحكم ، وأحاديث عن المصطفى صلى الله عليه وآله ، إلى ما تلا ذلك من منشور الحكم وموزونها وأبكار الآداب وعونها ، فبرزت روضة للقلوب والأسماع ورياضة للعقول والطباع ، وسميتها (سلوان المطاع في عدوان الأتباع) ، والسلوان جمع سلوانة ، وهي خرزة ترغم العرب أن الماء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا^(٢) .

قال الراجز :

لَوْ أَشْرَبَ السُّلْوَانَ مَا سَأَلْتِ مَا بِي غِنَى عَنْكُمْ وَإِنْ غَنَيْتِ

وهن خمس سلوانات

السلوانة الأولى : في التفويض
والسلوانة الثانية : في التأسى
والسلوانة الثالثة : في الصبر
والسلوانة الرابعة : في الرضا
والسلوانة الخامسة : في الزهد

وأنا أرغب إلى الله سبحانه في الإمداد بالسداد والإرشاد إلى نفع العباد ، فيه الحول والمكنة ، وله الطول^(٣) والمنة .

(١) أي عادت وديها ذات أزهار ووردها جميلة .

(٢) نسي .

(٣) الفضل والزيادة والسعة .

السلوانة الأولى

سلوانة التفويض

قال الله ربنا تقديس اسمه ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ١٩] .

وقال تقديس اسمه ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فاستوقفنا من عقل أمره عن الاقتراح^(١) عليه وأفهمهم ما يرضاه من التفويض إليه ، فالعاقل تارك الاقتراح على العالم بالصلاح ، ووجه إفهام الندب إلى التفويض من هاتين الآيتين : أنه إذا كان المكروه قد يأتى بالمحبيب والمحبوب قد يأتى بالمكروه ، فالأولى بذى البصيرة ألا يأمن المضرة بالمسرة ، ولا ييأس من المسرة بالمضرة ، فيستخير الله سبحانه ولا يختار عليه ، وهذا هو التفويض المستميد من الله سبحانه ، صرف البلاء ، واللفظ في مكروه القضاء

وبهذا عامل الله سبحانه مؤمن آل فرعون حين فوض أمره إليه . وذلك ما بلغناه : أنه كان من نوى قرابة فرعون وخواص أصحابه ، وكان وزراء فرعون قد فطنوا لإيمانه واتباعه موسى عليه السلام ، فأطلعوا فرعون على ذلك فلم يصدقهم وعطفته على ذلك المؤمن القرابة ، ولما ظهرت آيات الله سبحانه على يدى موسى عليه السلام بحضرة فرعون ، جمع فرعون بطانته ووزراءه وفيهم ذلك المؤمن ، فشاورهم فى أمر موسى عليه السلام فاتفقوا على أن الرأى مطاولة موسى عليه السلام وجمع السحرة لمقاومته ، وكان رأى فرعون معالجة موسى بالقتل ، وبذلك أخبر ربنا تقديس اسمه فقال ﴿فَسَأَلُوا أَرْجِيهِ وَأَخْذَاهُ وَأَنْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَاجِدٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف : ١١١] . وقال عز من قائل ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر : ٢٦] .

ولما اطلع وزراء فرعون على رأيه فى موسى عليه السلام ؛ أمسكوا عن مراجعته هيبه له ، وأشفق ذلك المؤمن أن يبطش فرعون بموسى عليه السلام ،

(١) الاستنباط من ذات نفسه من غير سماع .

فعل صبره^(١) وضاق بسره صدره فقال ما أخبر الله به عنه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر : ٢٨] ، ثم كأنه استقال وراجع التقيّة^(٢) والحذر والتورية فقال ما أخبر الله عنه ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ﴾ [غافر : ٢٨] .

فلما سمع فرعون مقاتله غضب وأمر به فسجن ، ثم شاور بطانته ووزراءه فى أمره ، فأشاروا بأن يسلط العذاب عليه ثم يقتله ليرتدع به من كان على مثل رأيه ، فكره ذلك فرعون وعطفته عليه القرابة ، وأمر وزراءه أن يسيروا إلى ذلك المؤمن فيعضوه وينصحوه ، ويأمروه بمراجعة ما كان عليه من الطاعة ، ويخوفوه عاقبة خلافه ، ففعلوا ذلك .

فلما سمع المؤمن مقاتلهم دعاهم إلى الله تعالى ، وأذكرهم ما عاينوه من الآيات ، وحذرهم زوال نعمة الله عنهم ، وحلول مكره بهم وكان منه إليهم ما أخبر الله عز وجل به عنه من قوله ﴿هُيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر : ٣٠] ، وقوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر : ٣٤] . وقوله ﴿هُيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ إلى قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر : ٤٤] .

فعاد القوم إلى فرعون وأخبروه عن المؤمن بثبوتة على المشاققة^(٣) والمناذرة^(٤) والمعصية لفرعون ، وأن النصيح لم يزد إلا تماديا على أمره ، فساء ذلك فرعون وشق عليه ، وخلا بنفسه مفكرا فيه ، فأنته ابنته فسألته عن أمره فأطلعها عليه فقالت له : إن عندى الفرج مما أنت فيه ، فلا تتعجل على خاصتك وذوى قرابتك فإنه على ما تحب ، ولكنه لما رأى أن موسى عليه السلام قد امتنع بالسلطان الذى فى عصاه ، وأن قتله مجاهرة غير ممكن ،

(١) أى نفذ صبره .

(٢) أن يقول غير ما يضره .

(٣) المخالفة .

(٤) المفارقة عن عدوة .

تظاهر بما أنكرته عليه ؛ لينخدع بذلك موسى ويتمكن من مداخلته وقتله غيلة^(١) ، فكلما رأيت وسمعت إنما هو مكر بموسى ، وما منعه أن يطلع عليه وزرارك حين ذهبوا إليه ، إلا أنهم أهل نميمة وحسد وبغى ، لم ينطبعوا على مثل رأيه ونصحه .

فسر فرعون بمقاتلتها وألقى الله في نفسه تصديقها ، فيقال : إن آسية امرأة فرعون هي التي أمرتها بذلك ، فأحضر فرعون ذلك المؤمن ، واعتذر إليه وأكرمه ، وقال له : قد علمت ما أنت قاصد له وساع فيه ، فقل ما بدا لك أن تقول ، وافعل ما شئت أن تفعله فليست أنهمك . قال الله سبحانه ﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا﴾ [غافر : ٤٥] .

فهذه الوقاية هي ثمرة ذلك التفويض ، ثم قال ربنا تقديس اسمه ﴿وَحَاقَ بِأَلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٥] ، أي حاق بهم ما أرادوه بذلك المؤمن من التعذيب ، وإن كان عذاب الدنيا لا يجتمع مع عذاب الآخرة إلا في التسمية ، وهذا كقوله سبحانه ﴿وَلَا يَخِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر : ٤٣] .

واعلم رحمك الله وإياي أن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الله ، وهو الذي دل الله عليه مصطفىاه محمدًا ﷺ بقوله ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥١] ، وأس^(٢) التفويض والباعث عليه ، إنما هو : اعتقاد أنه لا يكون من الخير والشر إلا ما أراد الله تعالى كونه . ولا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك ويتبين به ، وقد بالغ النبي ﷺ في قوله لعبد الله بن مسعود^(٣) : ﴿ليقل همك ما قدر بأتبك وما لم يقدر لم يأتك ، واعلم أن الخلق لو جهدوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدروا على ذلك ، ولو جهدوا أن يضرؤك بشيء لم يكتبه الله عز وجل لك

(١) قتله بالخديعة ، أي اغتياله .

(٢) أصل وأساس .

(٣) عبد الله بن مسعود ؛ ابن غافل بن حبيب بن شمش بن الحارث ، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدرى ، الإمام الحبر ، فقيه الأمة كان من السابقين النجباء والعاملين ، شهد بدرًا ، وهاجر الهجرتين ، ومناقبه غزيرة ، روى علماً كثيراً ، قال فيه النبي ﷺ ((من أحب أن يقرأ القرآن غصاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد)) . مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة (٥٣٢هـ) وله ٦٣ سنة . سير أعلام النبلاء (٩٢) .

لم يقدرُوا على ذلك»^(١) . فقولهُ صلى الله عليه وسلم : «ليقل همك» . أمر بالتفويض ، وقوله «وما قدر يأتيك» . إلى آخر الكلام : بيان للعلة التي من أجلها فوّض العقلاء ، وسلموا إلى الله عز وجل .

ونحو ذلك ما روينا في مسند مسلم ؛ أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة ، في كلام قاله له : «وإن أصابك شيء فلا تقل لو فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(٢) . فدلّه على التفويض إلى الله والتسليم لأمره ونهاه عن قول (لو) لأنها تنافي التفويض إلى الله ، وتقتضى الاعتراض على قدره ، والتعاطى لدفع مشيئته .

ومما روينا من صحيح مسلم عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسَلْتُكَ وَجْهِي إِلَيْكَ ، وَفَوَضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ ، وَالْجَنَاتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَلْجَأَ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسَلْتُ»^(٣) .

أسجاع وأبيات حكمية في التفويض

مُعَارَضَةُ الْعَلِيلِ طَبِيبِهِ ؛ تُوجِبُ تَعْذِيبَهُ .

إِنَّمَا الْكَيْسُ^(٤) الْمَاهِرُ ؛ مَنْ اسْتَسَلَمَ فِي قَبْضِ الْقَاهِرِ .

إِذَا كَانَتْ مَغَالِبَةُ الْقَدْرِ مُسْتَحِيلَةً ؛ فَمَنْ أَعْوَانَ نَفُوذَ الْحِيلَةِ .

إِذَا التَّبَسَّتِ الْمَصَادِرُ ؛ فَفَوَّضِ الْأَمْرَ إِلَى الْقَادِرِ .

إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب ، ومدبر مربوب^(٥) ؛ أن يتبدل رأيه في بعض الخطوب ، ويعمى عليه الصواب المطلوب ، فإذا كان ذلك ، فإن تدميره في تدبيره ، واغتياله في احتياله ، وهلكته في حركته .

(١) أخرجه الترمذي تكتب صفة للقيمة ، باب (٥٩) (٢٥١٦) بنحوه من طريق ابن عباس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الإمام مسلم : كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر والاذعان له (٣٦) من طريق أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجه : كتاب المقدمة ، باب (١٠) (٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٧٠ ، ٣٦٦/٢) .

(٣) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الدعاء ، باب الدعاء عند النوم (٥٤) (٥٥) من طريق البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٤) اللطن والحسن الفهم .

(٥) أي فطر على العبادة .

قيل : كان الحجاج بن يوسف^(١) إذا تعارضت آراؤه في خطب من الخطوب أنشد :

ذعها سماوية تجرى على قدر
لا تغيب ذنبا برأى منك
منكوس^(٢)

وفي ذلك قلت :

أيسا من يعول في المشكلات
إذا أكنك الأمر فابراً به
تكن بين عطف يقينك
المخـ وقت
إذا كنت تجهل عقي الأمور
فليم ذا العنا وعلام الأسي

وقلت في ذلك أيضا :

يتارب معتبط ومغـ
ومتاقس في ملك ما
علم العواقب ثوبه
فكن امراً مخض اليقين
ومتعارض الأقدار بال
تقويضه توحيد
بسط برأى فيه هلكة^(٣)
يشتقيه في الدارين ملكة
مبتزر وليس يرام هتكة^(٤)
وزيف الثبهات نسك
أراء سسيء الحال ضنكة
وعناد المقـ دور
شركة

روضة راقية ورياضة فائقة

لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك^(٥) أن ابن عمه يزيد بن الوليد بن

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي ؛ قائد وخطيب عربي ، ولد في الطائف ، وولاه الخليفة عبد الملك بن مروان إمرة الجيش ، كان ذا شجاعة وإقدام ومكر ، ودهاء وقصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن ، وله حسنات مغمورة في بحر جنوبه ، وأمره إلى الله ، وله توحيد في الجملة ، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء ، أهلكه الله في رمضان سنة (٥٩٥هـ) كهلاً ، وكان ظلوماً ؛ جباراً ، سفاكاً للدماء . سير أعلام النبلاء (٤٩٨) .

(٢) منكوس : أي خائب مردود .

(٣) الغبطة : تمنى نعمة على أن لا تحول عن صاحبها .

(٤) يرام : أي يراد .

(٥) الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ هو الخليفة الأموي الحادي عشر ، خلف عمه هشام بن

عبد الملك^(١) قد أوغر عليه الصدور ، وشرد عنه القلوب ، واستجاش اليمن عليه ، ونازعه رداء ملكه ساعيا في هلكه ، استوحش من بطانته ، واحتجب عن سماره ، فدعا عشية من عشايا وحشيتيه خادما له فقال : انطلق متكرا فقف ببعض الطرق وتأمل من يمر بك من الناس ، فإذا رأيت كهلا رث الهيئة والملبس يمشى مشيا هونا وهو مطرق فسلم عليه وقل له في أذنه : إن أمير المؤمنين يدعوك ، فإن أسرع الإجابة فائتني به ، وإن تلكأ أو عارض أو استراب فدعه ، واطلب غيره حتى تأتيني برجل على الشرط .

فلما دخل الكهل على الوليد بن يزيد حياه بتحية الخلافة وقام ، فأمره الوليد بالدنو والجلوس ، وأمهلته إلى أن ذهب روعته وسكن جأشه ، ثم أقبل عليه فقال : أتحسن مسامرة الخلفاء ؟ فقال الكهل : نعم أحسنها يا أمير المؤمنين فقال له الوليد : إن كنت تحسن مسامرة الخلفاء فأخبرنا عنها ما هي ؟ .

فقال الكهل : المسامرة إخبار لمنصت وإتصت لمخبر ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق ، فقال له الوليد : أحسنت أيها الرجل ، لأزيدك امتحانا ، فقل ننصت لقولك .

فقال الكهل : يا أمير المؤمنين : إن المسامرة صنفان لا ثالث لهما : أحدهما : إخبار بما يوافق خبرا مسموعا ، والثاني : إخبار بما يوافق غرضا مقترحا ، وإنى لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين حديثا ، فأخذو على مثاله ولا أفترح على أمير المؤمنين سلوك طريقة فأخو نحوها وألزم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وها نحن نقترح عليك ونرسم لك رسما لتقتنيه : إنا بلغنا أن رجلا من رعيتنا سعى فيما يضم ملكنا ، فأزمن سعيه^(٢) ، وشق ذلك

عبد الملك ، عاش في قصره في البادية منصرفا إلى الشعر والموسيقى حتى قتل عام (١٢٦هـ) وقد تولى الخلافة عام (١٢٥هـ) سير أعلام النبلاء (٧٩٤) .

(١) يزيد بن الوليد ، الخليفة أبو خالد القرشي الأموي الدمشقي ، استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبد العزيز ، وأمه هي عائكة بنت يزيد بن معاوية . ولد سنة (٧١هـ) وكان لا يصلح للإمامة ، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني . مات سنة (١٠٥هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٧٩) .

(٢) أي طال سعيه .

عَلَيْنَا وَتَلَّغَ مِنَّا ، فَهَلْ نَمَى ذَلِكَ إِلَى عِلْمِكَ ؟ .

فَقَالَ الْكَهْلُ : نَعَمْ ، قَالَ الْوَلِيدُ : قُلْ الْآنَ عَلَيَّ حَسْبُ مَا نَمَى إِلَيْكَ مِنْهُ وَعَلَيَّ حَسْبُ مَا تَرْضَى مِنَ التَّنْبِيرِ فِيهِ .

فَقَالَ الْكَهْلُ : يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ (١) ، لَمَّا نَدَّبَ النَّاسَ لِقَتَالِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ (٢) ، وَخَرَجَ بِهِمْ مَتَوَجِّهًا إِلَى مَكَّةَ - حَرَسَهَا اللَّهُ - اسْتَصْحَبَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ (٣) ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ قَدْ انْتَوَى عَلَى دَغْلِ نِيَّةٍ (٤) ، وَفَسَادِ طَوِيَّةٍ ، وَطِمَاعِيَّةٍ فِي نَيْلِ الْخِلَافَةِ ، وَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ قَدْ فَطِنَ لِذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَبْقَى عَلَيْهِ لِتَأْكَدِ حَرَمَتِهِ ، وَأَوْاصِرِ رَحْمِهِ . فَلَمَّا فَصَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ دِمَشْقَ وَسَارَ عَنْهَا أَيَّامًا ، وَاسْتَمَرَ بِهِ السَّيْرَ تَمَارِضَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ ، فَاسْتَأْذَنَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدَ الْمَلِكِ فِي الْعُودِ إِلَى دِمَشْقَ (٥) فَأَذِنَ لَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ

(١) عبد الملك بن مروان ؛ ابن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، الخليفة الفقيه ، أبو الوليد الأموي ، ولد سنة (٥٢٦هـ) . تملك بعد أبيه الشام ومصر ، ثم حارب ابن الزبير الخليفة ، كان قبل عابداً ناسكاً بالمدينة . أول من ضرب للدنانير وكتب عليها القرآن . وكان من رجال الدهر ودهاة الرجال ، وكان الحجاج من ذنوبه . مات سنة (٨٦هـ) وله (٦٠ سنة) سير أعلام النبلاء (٤٧٠) .

(٢) عبد الله بن الزبير ؛ ابن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أمير المؤمنين ، أبو بكر وأبو خبيب ، القرشي الأسدي المكي ثم المدني ، أحد الأعلام . كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة . بويع بالخلافة عند موت يزيد سنة (٦٤هـ) وحكم على الحجاز ، واليمن ، مصر ، والعراق وخراسان ، وبعض الشام . ومناقبه وفضائله عليه السلام تطول في هذا المكان . مات سنة (٧٣هـ) . سير أعلام النبلاء (٢٨٧) .

(٣) عمرو بن سعيد بن العاص ؛ ابن أمية بن عبد شمس ، أبو أمية القرشي الأموي ، المعروف بالأشدق ، يقال إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه . استتابه معاوية على المدينة ، وكذلك يزيد بن معاوية بعد أبيه . وكان من سادات المسلمين ، ومن الكرماء المشهورين ، يعطى الكثير ، ويتحمل العظائم ، ومات سنة (٧٠هـ) البداية والنهاية (٣١٤/٨) .

(٤) أى أضمر الغدر والخديعة .

(٥) دمشق : مدينة سورية ، وهى عاصمتها حالياً ، تقع على نهر بردى . معجم البلدان

دمشق ، صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة ، ودعا الناس إلى خلعه فأجابوه إلى ذلك وبايعوه ، فاستولى على دمشق وحصن سورها ، وحمى عورتها ، وسد ثغورها وبذل الرغائب^(١) ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان وهو متوجه إلى ابن الزبير ، وبلغه مع ذلك أن والى حمص قد نزع يده من الطاعة ، وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف ، فخرج على وزرائه وبيده مخصرة^(٢) يضرب بها عطفه^(٣) ، فأطلعهم على ما بلغه وقال لهم : هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد ، وهذا عبد الله بن الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخراسان ، وهذا النعمان بن بشير^(٤) أمير حمص^(٥) ، وزفر بن الحارث^(٦) أمير قنسرين^(٧) ، ونائل بن قيس^(٨) أمير فلسطين^(٩) ، قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس لابن الزبير ، وقد تشوف أهل الثغور

. (٤٨٦٦)

(١) الرغائب : مفرد ما رغبة وهي العطاء الكثير .

(٢) عصا يتوكأ عليها .

(٣) جانبه .

(٤) للنعمان بن بشير ؛ ابن سعد بن ثعلبة ، الأمير العالم ، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه . أبو عبد الله . أبو محمد الأنصاري الخزرجي . وكان من أمراء معاوية ؛ فولاه الكوفة مدة ، ثم ولى قضاء دمشق بعد فضالة ، ثم ولى إمرة حمص .. قيل : إنه قتل بقرية بيزين في آخر سنة (٦٤هـ) سنة . سير أعلام النبلاء (٣٠٠) .

(٥) حمص : مدينة سورية على نهر العاصي بين دمشق وحماة . معجم البلدان (٣٩١٤) .

(٦) زفر بن الحارث : أمير قنسرين في عهد عبد الملك بن مروان .

(٧) قنسرين : كورة بالشام منها حلب ، وهي مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم . معجم البلدان (٩٩٢٠) .

(٨) نائل بن قيس : هو أمير فلسطين في عهد عبد الملك بن مروان وبايع له مروان بن الحكم بفلسطين . البداية والنهاية (٢٤٣/٨) .

(٩) فلسطين : هي آخر كور الشام من ناحية مصر ، قصبتها البيت المقدس ، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافا وبيت جبرين . وقيل : إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب . معجم البلدان (٩٢٤٣) .

للخلاف وهذه المضرية^(١) سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلى المرج .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم وعلموا أن لا مقر ولا مقر ، فنكسوا رؤوسهم ولم ينطقوا ، فقال لهم عبد الملك : ما لكم لا تتطقون أحضروني غناءكم فهذا وقت الحاجة إليكم ، فقال له أفضلهم : وأى غنى عندنا فى هذا ؟ وددت والله أنى كنت حرباء على عود من أعواد تهامة^(٢) حتى تنقضى هذه الفتن .

قال محمد - عفا الله عنه - : الحرباء : دابة صغيرة طولها أقل من شبر ، لها قوائم أربع ورأس يشبه رأس العجل ، إذا طلعت عليها الشمس ، قامت على عود ، أو جرثومة ، أو حجر ، استقبلت الشمس بعينها ، وجعلت تراعيها ولا تصرف عنها بصرها ؛ حتى تستوى الشمس فى أعلى فلكتها ، فتصير على رأس الحرباء ، فلا يمكنها النظر إلى الشمس ، فتقلق وتتململ وتضرب بلسانها حنكها ، كما يفعل من يسوق حمارا ، فلا تزال كذلك حتى تزول الشمس ، فتستدير الحرباء فتقابلها ببصرها وتراعيها كذلك ، حتى تغيب الشمس فى مغربها ، فإذا غربت ذهبى الحرباء تبتغى ما تأكله ليلتها ، حتى إذا طلعت الشمس عادت لفعالها . فتمنى هذا الرجل أن يكون حرباء فرارا من تلك الفتن .

قال الكهل : فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه ؛ علم أن لا غناء عند وزرائه ، فقام عنهم وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب من فوره منفردا ، وأمر جماعة كثيفة من شجعان أصحابه وفرسانهم أن يركبوا فى السلاح ويتبعوه مبتعدين منه ، بحيث يرون إشارته إن أشار إليهم ففعلوا ، وسار عبد الملك واتبعه القوم على ما رسم لهم ، فلم يزل سائرا حتى انتهى إلى شيخ كبير السن ضعيف الجسم سىء الحال وهو يجمع السماق^(٣) فسلم عليه عبد الملك وأنسه بحديث خفيف . ثم قال له : أيتها الشيخ : ألك علم بمنزل هذا العسكر ؟ :

(١) المضرية : نسبة إلى قبيلة مضر . وسمى مضر بذلك لأنه كان مولعاً بشرب اللبن الماضر .

(٢) تهامة : بلاد جنوبى الحجاز والنسبة إليها تهامى . البداية والنهاية (٢/١٦٠) .

(٣) نوع من الأشجار .

فقال الشيخ : بلغنى أنه نزل بموضع كذا .

فقال له عبد الملك : هل سمعت شيئاً مما يقول الناس فى أمره ؟ .

فقال الشيخ : ما سؤالك عنه ؟ قال عبد الملك : إني أريد اللحاق به والدخول فى عسكره والتعرض للحظوة عنده .

فقال الشيخ : إني أراك أدبياً وضيافياً ، وأحسبك حسيباً سريراً ، فهل تحب أن أنصح لك فيما أنت قاصد ؟ ، فقال عبد الملك : ما أخرجنى إلى ما تقول .

فقال الشيخ : إنه ينبغي لك أن تصرف نفسك عن هذا الذى نزعته إليه ، فإن الأمير الذى أنت قاصده قد انحلت عرى ملكه ، ونايذه أتباعه ، واضطربت أموره ، وإن السلطان فى حال اضطراب أموره كالبحر فى حال هياجه ، لا ينبغي أن يقرب .

فقال عبد الملك : أيها الشيخ إن الحكمة لم تبلغ بى مغالبة نفسى فى كل ما نزعته إليه ، وإني أجدتها تنزع إلى صحبة هذا الأمير نزاعاً شديداً ، ولا بد لى من ذلك ، فهل لك أن تحسن إلي فتخبرنى بما تراه من الرأى لهذا الأمير فى تدبيره هذه الخطوب التى دهمته ؛ لأعرض ذلك الرأى عليه والنفق به عنده فقله أن يكون سبباً لقربى منه .

فقال الشيخ : إن حكمة الله وعزته ؛ ليقتضيان بحجب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل ، وإني لأظن أن هذه النازلة التى نزلت بهذا الخليفة من النوازل التى لا تنفذ فيها العقول ولا يهتدى إلى صواب تدبيرها الرأى ، وإني لأكره أن أورد مسألتك بالخيبة ، فها أنا أقول فيما سألتنى عنه قولاً أقضى به حق رغبتك ، وإن كنت لا أثق بنفسى فيه لأن الخطب عظيم جداً ، والخطر فيه يضاهى عظمه .

فقال له عبد الملك : قل جزاك الله خيراً ، فإني لأرجو أن يسدّدك الله ، ويرشدك ويرشدنى بك إلى الفلاح .

فقال الشيخ : إن هذا الخليفة خرج لمحاربة عدوه فظهر من مشيئة الله سبحانه أنه لا يريد ما قصد له ، والدليل على أن الله لم يرد قصده لمحاربة ابن الزبير ، أنه قطعه عن التمادى بما أحدثه فى دار ملكه ، من وثوب عمرو بن

سعيد على منبره، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله ، وسرير
خلافته ، وإني مشير عليك بتفقد حال هذا الأمير وانتظار ما يكون منه ، فإن
رأيتَه قد تمسدى فيما خرج إليه ، وأصر على قصد ابن الزبير ؛ فاعلم أنه
مخدول فاجتنبه ، وإنما كان مخدولا لأن الله سبحانه قد أظهر من حكمه أمرا
يقطعه عن التمدى لما خرج له فأبى إلا لجاجاً^(١) ، وإن رأيتَه قد رجع من حيث
جاء وترك ما كان خرج له وقصد إليه، فأرجو له السلامة لأنه مستقيل^(٢)
مراجع ، والله سبحانه أهل أن يقبل من استقاله ويرحم من رجع إليه .

فقال له عبد الملك : يا شيخ : وهل رجوعه إلى دمشق إلا كمسيرى إلى ابن
الزبير ، إذ كان قد ظهر من حكم الله ومشيئته أن قبض قلوب رعيته الذين
بدمشق عن موالاته ، وبسط أيديهم بالبيعة لغيره ؛ فمسيره إلى ابن الزبير
كرجوعه إلى عمرو بن سعيد ؛ لأن كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ،
ورعية مطيعة .

فقال الشيخ : إن الذى أشكل عليك لوأضح بين ، وها أنا أزيل اللبس عنك ،
إن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم له ؛ لأن ابن الزبير لم
يعطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة ، وهو إذا قصد عمرو بن سعيد ،
كان فى صورة المظلوم ؛ لأن عمرو بن سعيد نكث^(٣) بيعته ، وخان أمانته ،
وأفسد رعيته، وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا
لأبيه بل كان لعبد الملك ولأبيه من قبله ، وعمرو بن سعيد عليها معتد ، ولها
مغتصب . وإنه كان يقال : سمين الغصب مهزول ، وولى الغدر معزول .
وكان يقال : جيش العدوان مفلول ، وعرش الطغيان مثلول^(٤) .

وسأضرب لك مثلا يشقى النفس ، وينقى لباس ، وأودعه من فقر الحكم ما

(١) إلحاحاً .

(٢) أى رجع عما يفعله .

(٣) نقض .

(٤) مالك .

يشحد^(١) الفطن والأكياب ، ويسفر عن وجه الصواب .

قال الشيخ : زعموا أن ثعلبا كان يدعى ظلما ، وكان له جحر يأوى إليه ، وكان مغتبطا به لا يبتغي عنه حولا ، فخرج يوما يبتغي ما يأكل ، ثم رجع فوجد فيه حية فانتظر خروجها عنه فلم تخرج ، وعلم أنها قد أوطنته ، وذلك أن الحية لا تتخذ حجرا أو تدخل الجحر فتغتصبا ، وتطرد عنها ما كان فيها من الحيوان ، قال الراجز يصف رجلا بالظلم :

وأنت كالأفغى التي لا تتغير ثم تخبي شاردة فتتخجر^(٢)

ولذلك قالوا : فلان أظلم من حية ، فهذا ظلمها ، ولما رأى ظالم أن الحية قد أوطنت جحره ، ولم يمكنه السكوت معها ذهب يطلب لنفسه مأوى ، فانتهى به الطواف إلى جحر حسن الظاهر ، حصين الموضع ، فى أرض خصبة ذات أشجار ملتفة وماء معين ، فأعجبه وسأل عنه ، فأخبر أن ذلك الجحر لثعلب يدعى مفوضا ، وأنه ورثه عن أبيه ، فناداه ظالم ، فخرج إليه ورحب به وأدخله الجحر ، وسأله عن ما قصد له فقص عليه خبره وشكا إليه ما ناله ، فرق له مفوض ، ثم أقبل عليه فقال له : إن من الهمة ألا تقتصر عن مطالبة عدوك ، وأن تستفرغ جهدك فى ابتغاء دفعه وملكه . وإنه كان يقال : من تهيب عدوه فقد جيش إلى نفسه جيشا . وكان يقال : رب حيلة أنفع من قبيلة . وكان يقال : الموت فى طلب الثار خير من الحياة فى العار . وكان يقال : إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة فلا تقدم عليه حتى تعلم ضعفه عنك ، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وإن كان عظيما .

والرأى عندى أن تتطلق معى إلى مشواك الذى انتزع منك غضبا ؛ حتى تطلع عليه فلعلى أن أهتدى إلى وجه مكيدة فى تمكينك منه ، فإن أفضل الرأى ما أسس على الرؤية . ولهذا قيل : يفسد التدبير بثلاثة أسباب أحدها : أن يكثر الشركاء فيه ، فإذا كان كذلك انتشر التدبير وبطل . والثانى : أن يكون الشركاء فى التدبير متحاسدين متنافسين فيدخله الهوى والبغى فيفسد . والثالث : أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبر دون من باشره وشاهده ، فإذا كان كذلك دخله

(١) يصقل .

(٢) تتحجر : أى تتخذ ما يلاقيها من الحجور موطناً لها .

حقد المباشر الحاضر وفوت الفرص ، ثم أن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر ، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر .

فانطلقا معا إلى ذلك الحجر فتأمله مفوض وعلم ما أراد علمه ، ثم أقبل على ظالم فقال له : قد شاهدت من أمر مسكنك ما فتح لى باب المكيدة ، وسفر لى عن وجه الرأى فيه .

فقال ظالم : أطلعنى على ما ظهر لك .

فقال مفوض : إن أضعف الرأى ما سنع فى البديهية ، وإنه كان يقال : الرأى مرآة العقل ، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره ، وكان يقال : أفضل الرأى ما أجادت الفكرة فقده ، وأحكمت الروية عقده ، وكان يقال : الرأى سيف العقل ، ولما كان أمضى السيوف ما بولغ فى إرهاف حده^(١) ، وأجيد صقله ؛ كان أنجح الآراء ما أكثر امتحانه وأطيل تأمله^(٢) ، وكان يقال : كل رأى لم تتمحص^(٣) فيه الفكرة ليلة كاملة فهو مولود لغير تمام ، ثم قال له : انطلق معى فبت الليلة عندى لأنظر ليلتى هذه فيما سنع لى من المكيدة ، ففعلا وبات مفوض مفكرا فى ذلك ، وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض ، فرأى من سعته وطيب تربته، وحصانته وكثرة مرافقه ؛ ما اشتد له إعجابه به وحرصه عليه، وطفق يدبر الحيلة فى غصبه ونفى مفوض عنه .

وكان يقال : اللثيم كالنار إكرامها إضرارها^(٤) ، وكالخمير حبيبها سائبها ، وتبيعها صريعها ، وكان يقال : إذا كانت الإساءة طبعا ، لم يملك لها الإحسان دفعا ، وكان يقال : العاقل يقدم التجريب على التقريب ، والاختبار على الاختيار، والنقمة على المقمة^(٥) .

فلما أصبحا ، قال مفوض لظالم : إنى رأيت ذلك الحجر بعيدا من الشجر

(١) أى رقق حده .

(٢) أى طال تأمله .

(٣) تدقق وتختبر .

(٤) إيقادها وإشعالها .

(٥) أى الذى أتق فيه خير ممن أحيه ، والمقمة هى : الحُب .

والخضرة ، فاصرف نفسك عنه ، وهلم أعنك على احتقار مسكن بهذا المكان المتيسر المرافق .

فقال له ظالم : إن ذلك يُمكننى ؛ لأن لى نفسا تهلك لبعء الوطن حنيننا ، ولا تملك مع فقد السكن سكونا ، وأنه كان يقال : دلائل الوفاء سبعة : بر الآباء والأمهات ، وصلة ذوى القربيات ، والنزاع إلى الوطن^(١) ، والجزع على السكن ، والحزن لأخلاق الشباب ، واللبس لأخلاق الثياب^(٢) ، والصبر على هرم الدواب . وكان يقال : الغريب ميت الأحياء قد أعاده اليبين^(٣) ، أثرا بعد عين .

وقيل : إن حروف الغريبة مجموعة من أسماء دالة على محصول الغربة : فالغين من : غدر ، وغيبة ، وغبن^(٤) ، وغم ، وغلة^(٥) ، وهى : حرارة الحزن ، وغيرة ، وغول^(٦) ، وهى : كل مهلكة .
والراء من : رزء^(٧) ، وروع ، وردى ، وهو : الهلاك .
والباء من : بلوى ، وبؤس ، وبوار ، وهو : الهلاك .
والهاء من : هون ، وهوان ، وهم ، وهلك .

فلما سمع مفوض مقالة ظالم وما تظاهر به من الرغبة فى وطنه قال له :
إنى أرى أن نذهب يومنا هذا فنحتطب حطبنا ونرتبط منه حزمتين ، فإذا أقبل الليل انتطلقت أنا إلى بعض هذه الخيام فأخذت قيس^(٨) نار واحتملنا الحطب والقيس وقصدنا إلى مسكنك ، فجعلنا الحزمتين على بابيه واضرناهما نارا ،

(١) أى الحنين إلى الوطن .

(٢) أى الثياب البالية القديمة .

(٣) الفراق والبعء .

(٤) الظلم .

(٥) حرارة الجوف ، والمراد بها شدة الحزن كما رأى المؤلف .

(٦) من معانيه الصراع وبعد المغازة والمشقة .

(٧) المصيبة .

(٨) هى شعلة النار التى تؤخذ من معظم النار .

فإن خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجحر أحرقتها الدخان .

فقال ظالم : نعمّ الرأي هذا ، فانطلقا فأحطبا ربطا من الحطب حزمتين بقدر ما يطيقان حملة ، ولما جاء الليل وأوقد أهل الخيام النار انطلق مفوض ليأخذ قيساً ، فعهد ظالم إلى إحدى الحزمتين فأزالها إلى موضع غيبها فيه ، ثم جر الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض ودخله وجرها إليه فأدخلها في الباب فسده بها ، وقدر في نفسه أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لحصانته ولأن بابيه مسدود بالحطب سداً محكما ، فأكثر ما يقدر عليه أن يحاصره ، فإذا يئس منه ذهب ينظر لنفسه مأوى ، وقد كان ظالم رأى بجحر مفوض طعنة لآخرها مفوض لنفسه ، فعول ظالم على الاقتيات منها في مدة الحصار ، وأذهله الشره والحرص والبغى عن فساد هذا الرأي ، وأنه متعرض لمثل ما عزم مفوض أن يفعله بالحية .

وكان يقال : احترس من تدبيرك على عدوك كاحتراسك من تدبيره عليك ، فرب هالك بما دبر ومكر ، وساقط في البئر التي احتقر ، وجريح بالسلاح الذي شهر . ثم إن مفوضاً جاء بالقيس فلم يجد ظالماً ولا وجد الحطب ، فظن أن ظالماً قد احتمل الحزمتين معه تخفيفاً ، وأنه يادر بهما نحو جحره إشفاقاً أن يأتي مفوض فيحمل أحدهما فشق ذلك عليه فظهر له من الرأي أن يترك القيس ويبادر إليه فيلحقه ليحتمل معه الحطب ، فألقى القيس من يده ثم كره أن تنفذ النار فيحتاج إلى طلب قيس آخر ، فأدخله في باب الجحر ليستره بذلك فأصاب الحطب فأضرمه ناراً واحترق ظالم في الجحر وحق به مكره .

فلما اطلع مفوض على أمر ظالم قال : ما رأيت كالبغى سلاحاً أكثر عمله في متحملة .

ولهذا قيل : الباغى باحث عن مديّة^(١) حتفه بظلفه^(٢) ، ومتردد في مهاوى تدميره بمساوى تدبيره .

وقيل : ما اجتمع البغى والملك على سرير^(٣) إلا خلى .

(١) السكين .

(٢) الظلف : حافر الدابة .

(٣) أى العرش .

وقيل : لكل عائرٍ راحمٍ إلا الباغى ، فإن القلوب مطبقة على الشمامسة
بمصرعه

وقيل : ما أعطى البغى أحدا شيئا قط إلا أخذ منه أضعافه . ثم إن مفوضا
أهل حتى طفئت النار فدخل جمره ، فاستخرج جيفة ظالم فألقاها وأوطن جمره
على حالٍ تحفظٍ واحتراسٍ واستعدادٍ لكيد الكائدين .

فهذا مثل عمرو بن سعيد ، فى بغيه ومخادعته عبد الملك ، ومخالفته إلى
دار ملكه وتحصنه فيها ، وقد كان عبد الملك فى مخرجه إلى محاربة ابن الزبير
عاملا فيما يريد به عزُّ عمرو بن سعيد وبقاء الملك فى أهل بيته وخروجه عن
ابن الزبير ، إذ كان عز عمرو ابن سعيد عز عبد الملك ، وملكه ملكا له ، فلم
يرض عمرو سعيه ولا أعانه على مصلحة نفسه ، وفعل كفعل ظالم مع مفوض
سوء .

فلما سمع عبد الملك ما ضربه الشيخ من المثل ، واستبصر فيما أودعه من
الحكم ؛ سرَّ بذلك سرورا شديدا ، ثم أقبل على الشيخ فقال له : جزيت خيرا فقد
عظمت يدك عندي ، وإتى لأوثر أن تجعل بينى وبينك موعدا ، وتذكر لى
مكانك لألقاك به بعد يومى هذا .

فقال له الشيخ : وما الذى تريد بذلك ؟ فقال عبد الملك : إنى أريد أن انتفع
برأيك عند الأمير فأكافئك على ما كان منك .

فقال الشيخ : إنى أعطيت الله عهدا ، ألا أتحمّل منة لبخل .

فقال له عبد الملك : ومن أين علمت بخلى ؟

فقال الشيخ : كيف لا أعلم بذاك ، وقد أرجأت صلتى ومكافأتى مع القدرة
على تعجيلها ، فما عليك لو وصلتنى ببعض ما أرى عليك من السلاح والبزة
السنية^(١) .

فقال له عبد الملك : أقسم بالله لقد ذهلت ، ثم نزع سيفه وقال : أقبل منى
سيفى هذا ولا تخدع عنه فإن قيمته عشرون ألف درهم .

فقال الشيخ : إنى لا أقبل صلة ذاهل ، فدعنى وربى الذى لا يبخل ولا يذهل
فهو حسبى .

(١) الثياب الفاخرة .

فلما سمع عبد الملك مقالته علم فضله في دينه وقال له : إني أنا عبد الملك فاعتمدني وارفع إليّ حوائجك .

فقال الشيخ : وأنا أيضا عبد الملك فهل نرفع حوائجنا إلى من أنا وأنت له عبدان . فانطلق عبد الملك فعمل برأيه فأنجح .

فلما سمع الوليد بن يزيد ما أخبر به ذلك الكهل ، استرجع عقله واستظرف أدبه وسأله عن نفسه فتسمى له وانتسب فلم يعرفه الوليد فاستحي منه وقال له : إن من جهل مثلك من رعيته لمُضَيِّع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين إن الملوك لا تعرف إلا من تعرّف إليها ولزم أبوابها .

فقال الوليد : كلا والله فلا توسعنا عذراً لا نستحقه ، ثم أمر له بصلة معجلة وعهد إليه في ملازمة بابه فهذا فكان يستمتع بأدبه إلى أن كان من أمر الوليد ما هو مشهور .

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل : لما عزم أمير المؤمنين محمد الأمين^(١) على إخراج عهد الخلافة عن أخيه عبد الله المأمون^(٢) ، والمأمون إذ ذاك مقيم بخراسان^(٣) كتب إليه الأمين

(١) محمد الأمين : أبو عبد الله محمد بن الرشيد هارون ، ابن المهدي محمد ، ابن المنصور ، الهاشمي العباسي البغدادي ، الخليفة . وأمه زبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور . عقد له أبوه بالخلافة بعده ، فكان مليحاً ، بديع الحسن ، أبيض وسيماً طويلاً ، ذا قوة وشجاعة وأدب وفصاحة ، ولكنه سييء التنبير ، أرعن لعوباً ، مع صحة إسلام ودين . عاش الأمين سبعاً وعشرين سنة ، وقتل في المحرم سنة (١٩٨هـ) وخلافته دون الخمس سنين ، سامحه الله وغفر له . سير أعلام النبلاء (١٤٤٣) .

(٢) المأمون : عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي ، الخليفة ، أبو العباس . ولد سنة (١٧٠هـ) وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأرائل ، وأمر بتعريب كتبهم ، وبالغ ، وعمل الرصد فوق جبل دمشق ، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ ، نمدأل الله السلامة . وكان من رجال بني العباس حزمياً وعزماً ورأياً وعقلاً وهيبة وحلماً ، ومحاسنه كثيرة في الجملة . مات في رجب في ثلثي عشرة سنة (٢١٨هـ) . وله (٤٨) سنة . سير أعلام النبلاء (١٦٣٠) .

(٣) خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق أزنوار قصبه جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزة وسجستان وكرمان وتشتمل على أمهات من البلاد منها : نيسابور وهرات ومرو . وهو إقليم في شرق إيران حالياً . على الحدود

كتاباً يذكر فيه حاجته إلى لقائه ومفاوضته في مهم حدث ، وبمسأله أن يستتیب بخراسان من یضبطها ویعجل الشخرمی إلى بغداد^(١) ، وكتب إلى المأمون عیونه فأشاروا علیه بالثبیت والتعلل والاعتذار بشعب خراسان وتطلع من یلیها من الكفار إلى الفرصة فیها وأنه لا یجد من یثق بكفایته لأمرها .

وقال له عیونه الذین ببغداد : إن الأمين یرید خلعك من عهد الخلفة ونقل عهده إلى موسى بن محمد الأمين ، فلما وقف المأمون علی ما كتب له أخوه وعیونه إليه شاور وزراءه .

فكتب المأمون إلى الأمين بذلك فعاود الأمين بذلك مكاتبته وأنه لو قسم علیه لقل لبثه ببغداد حتی یرجع ، وإنما یریده كى یفاوضه فی خطب جسیم لا تودع منته الكتب ، فحین انتهى كتابه إلى المأمون أطلع علیه وزراءه واستشارهم فأشاروا علیه بمثل رأیهم الأول .

فكتب إلى الأمين بنحو ما كتب إليه أولاً ، وكتب إلى الأمين عیونه بخراسان : أن المأمون قد فطن لما یراد منه وأنه ممتنع مشاقق ، وأن وزراءه اجتمعوا علی أمره بالامتناع ، فیس الأمين من تمام مكیدته لأخیه ، وأمر بالقبض علی من ببغداد من حشم المأمون وحرمة وبطانته وما ظهر علیه من أمواله ، وبلغ ذلك المأمون ، فخامرہ الجزع وشاور وزراءه فثبتوا علی رأیهم وحضوه علی الثبیت وانتظار الفرغ ففعل .

ولما رأى الأمين إصرار أخیه المأمون علی الامتناع دعا الناس إلى البیعة لابنه موسى فأجابوه إلى ذلك وبایعوا له وسماه : الناطق بالحق ، واستكفل له علی بن عیسی بن ماهان^(٢) فجعله فی حجره ، وكان علی بن عیسی بن

الأفغانیة . معجم البلدان (٤١٦٤) .

(١) بغداد : أم الدنيا وسيدة البلاد ، مدینة بالعراق علی نهر دجلة وهی خلصتها ، كاتبة عاصمة الخلفة العباسیة ، ومن عواصم الإسلام التاریخیة الهامة . وتسمى مدینة السلام أيضاً . معجم البلدان (٢٠٢٠) .

(٢) علی بن عیسی بن ماهان : من كبار القادة فی عصر الرشید والأمين وهو الذى حرّض الأمين علی خلع المأمون فی ولاية العهد ، وسیره الأمين لقتال المأمون بجیش كبير ، ولاء إمارة الجبل وهمدان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جیش المأمون بقيادة طاهر بن

ماهان قد ولي خراسان قبل ذلك مدة طويلة فاصطنع بها الرجال واعتقل المين في الأعناق^(١) ، وكان شأنه بخراسان عظيما فاستشاره الأمين في أمر خراسان فضمن له أمرها وأخبره أنه لو بلغ خراسان لم يختلف عليه اثنان ممن هو بها . فجهزه الأمين إليها وولاه كل بلد يغلب عليها ، وأعطاه أموالاً جزيلة وجهاز معه جمهور جنوده وأصحابه من السلاح والكرام^(٢) ما شاء ، وبلغ ذلك المأمون فاضطرب أمره وعلم عجزه عن مقاومة علي بن عيسى ، فركب إلى منزله له لينظر وزراءه في تدبير أمره ، فعارضه شيخ هرم من القرس ؛ مجوسى ، فناداه بالفارسية مستغيثاً من مظلمة نالته ، فلما نظر المأمون إلى هرمه رق له وأمر أن يحمل على دابة ويتبع به إلى الموضع الذى قصده ويدخل عليه بغير استئذان ، ولما استقر المأمون ووزراؤه بذلك الموضع الذى قصده أدخل عليه الشيخ الفارسى فأمره بالجلوس فى حاشية المجلس ، ثم أقبل على صحابته ، فأخبرهم بما صنعه أخوه الأمين من القبض على حاشيته وماله ، وتجهيزه على ابن عيسى وهو يظن أن الشيخ لا يحسن اللسان العربى وأن ما به من الهرم شاغل له عن الإصغاء إلى ما هم فيه مع ما حمله على ذلك من القلق والاضطراب .

فلما رأى القوم أن المأمون لم يتحفظ من الشيخ تفاوضوا فيما جلسوا له فطالت مناظرتهم إلى أن قال أحدهم : رأى اصطناع قوم من الاغتام^(٣) الذين لا يعرفون على بن عيسى فيلقى بهم .

وقال غيره : رأى أن يبادر بالإرسال إلى الأمين بطلب الصفح وبذل الانقياد لأمره فإنه يرى ذلك حظا .

وقال غيره : رأى أن يلجأ إلى بعض المعائل فيعتصم به وينتظر الفرج .
وقال غيره : رأى أن تجمع أهل النجدة فنزح عليهم ، ثم نقصد بعض هذه الممالك المجاورة لنا من ممالك الكفار فنصدقهم القتال ، ففعل الله أن يظفرنا

حسين فى رأى فقتل ، وانهزم أصحابه ، مات سنة (١٩٥هـ) . الكامل لابن الأثير

(٧٩/٦) ، البداية والنهاية (٢٢٦/١٠) .

(١) المين : أى الفضل والقوى .

(٢) اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير .

(٣) الاغتام ، مفرد ما : غتم وهو من لا يقصح فى كلامه (الأعجام) .

فنصير إلى مملكة تؤويننا وينزع إلينا من هو على مثل رأينا فنمتنع ونجاهد في سبيل الله عز وجل حتى يقضى الله أمره .

وقال غيره : الرأي عندي أيها الأمير أن ينحاز الأمير إلى ملك الترك مستجيراً به ومستغيثاً على أخيه الغادر القاطع ، فهذا أمر لم تزل الملوك تفعله إذا دهمها ما لا قبل لها به .

فلما سمع المأمون هذه المقالة ركن إليها وعول على هذا الرأي ، ثم فكر فقال: كيف أجعل للترك على حرب المسلمين سبيلاً وقال لأصحابه : قوموا عني فنهضوا أجمعون ، والتفت فرأى الشيخ الفارسي فقربه ورفق به وسأله عن أمره وما قصد له على لسان ترجمان أقامه له فقال الشيخ بلسان عربي : أيها الأمير إنى جئت لحاجة فعرض لي دونها ما هو أكد منها وأولى .

فقال المأمون : قل ما أحببت سالكا سبيل الأديب .

فقال الشيخ : أيها الأمير : إنى دخلت إليك غير متصف بالمحبة لك ثم ألقى الله تعالى في قلبي من المحبة للأمير ما ملأه وأنه كان يقال : الرق ثلاثة أنواع : فأولها وأشدها استيعاباً للباطن والظاهر رق الاختراع وهو الرق لله صانع الأشياء ومخترعها ، والثاني : رق الاصطناع وهو رق المنعم عليه للمنع ، والثالث : رق الاتباع ، وهو صنفان : أحدهما : رق الحب وهو أقربها إلى رق الاختراع لأن له سلطاناً متسلطاً على الباطن والظاهر . والثاني : رق الرعية لراعيها ، ورق العبيد لسانتها ، وأنا أخبر الأمير أعزه الله أنه قد تظافرت له على ثلاث قوى من الرق : رق الحب ، ورق الاصطناع ، ورق الاتباع ، فإن رأى الأمير أعزه الله أن يوسل وسيلتي ويصدق أملى ، ويسعف طلبى فيلحبنى^(١) رداء اختصاصه ، ويكرمنى بمكائنة أوليائه ونصائحه ، فعل ذلك متطولاً^(٢) به غير محتاج إليه ، وإن عبده ليرجو أن تصادف الصنعة منه شاكراً ، والاختصاص منه مشفقاً ناصحاً .

فقال له المأمون : ما دينك أيها الشيخ ؟ قال : مجوسى . فأطرق المأمون

(١) أى يمنحنى .

(٢) أى متفضلاً .

مفكرا فيما تكلم به .

فقال الشيخ : لا يصدن الأمير عنى حقارة قدرى عنده فإنه كان يقال : لا تحقرن من الاتباع أحدا فإنك تنتفع به كائنا من كان ، وهو أحد رجلين ، إما شريف فتتجمل به ، وإما وضيع فيحى عرضك ويصون مروعتك وعلى أنى لست أعنى بحقارة قدرتى عند الأمير حقارة أخلاق ، ولا حقارة أعراق ، فأما أخلاقى فامتحناتها بيد الأمير ، وأما أعراقى^(١) فإنى برهمسى من براهمسة البرهميين^(٢) سيد ملوك الفرس المتوسط بينها وبين أول الأوائل ، وإنما أعنى حقارة دينى عند الأمير وكونى فى عقد نمته^(٣) ، وصغار جزيته^(٤) .

فقال المأمون : ما بنا عنك أيها الشيخ من رغبة ، وإن انتقلت من نمتنا إلى ملتنا ألحقناك شعارا .

فقال الشيخ : إن الباعث من نفسى إلى ما دعانى إليه الأمير لسديد ، ولكن لا أفعله فى مقامى هذا ، ولعلنى أن أفعله فيما بعد ، ثم قال : أياذن لى الأمير أن أتكلم فيما فاوز الآن وزراءه فيه ، فقال له المأمون : نعم .

فقال الشيخ : قد سمعت ما أشار فيه وزراء الأمير وكل منهم مجتهد فى الإصابة ولست أرضى شيئا مما ذهبوا إليه ، فقال له المأمون : أطلعنا على ذلك .

فقال الشيخ : إنى أجد فى الحكم التى ورثها آبائى عن آبائهم : أنه ينبغى للعاقل إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التسليم لحكم قاسم الحظوظ و لا يضيع من ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته ، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر فقال المأمون : أيها الشيخ : إنه كان يقال : لا رأى لكنوب ، وقد سمحت أنفسنا لك بالنقة من غير امتحان ، وما ذلك لاختيارنا إضاعة

(١) أى نسبى وأصلى .

(٢) البراهمة : هم خدمة إله الهنود (برهما) يعبدون كل شىء سوى الله سبحانه وتعالى .

(٣) أى أنه من أهل الذمة .

(٤) الجزية : والجمع جزى وجزاء : ما يؤخذ من الذمى لأنها تجزى عنه أى تكفيه معاملة الحربيين .

الحزم، ولكننا أحببنا أن نذيقك ثمرة حبنا بالمكاشفة الدالة على القبول ، وها نحن نخبرك أن هذا المتوجه إلينا ؛ يعنى على بن عيسى هو أملك بالبلاد منا ، لا يمكننا مقاومته ، ولو أردنا ذلك لتعذرت الأموال قبلنا . فقال الشيخ : أيها الأمير : ينبغي أن تمحو هذا الأمر من قلبك بالجملة ، ولا تصفى إلى من ينطق به فإنه كان يقال : ما كثر من كثرة البغي ، ولا قوى من قواه الظلم ، ولا ملك من ملكة الغضب ، وها أنا أحدثك عن إن حدوث مثاله نلت مثاله .

فقال له المأمون : هات .

فقال الشيخ : إن الخنشوار^(١) ملك الهياطلة^(٢) ، لما أسر فيروز بن يزيد^(٣) ، ملك فارس وأراد إطلاقه ، أخذ عليه عهدا ألا يغزوه ولا يقصده بمكروه ووقع في أقصى تخوم^(٤) أرض الهياطلة صخرة ، وأخذ على فيروز عهدا ألا يجاوز تلك الصخرة ، ولما استوثق الخنشوار من فيروز بما أخذ عليه من عهود المسالمة أطلقه ، فحين رجع فيروز إلى دار ملكه داخلته الحمية والأنفة ، فعزم على غزو الخنشوار وأطلع وزراءه على ذلك ، فحذروه النكت ، وخوفوه عاقبة البغي ، فما ردعه ذلك عما همّ به ، وأذكروه العهود التي أخذ عليه ، فقال لهم : إني إنما حلفت له ألا أتجاوز تلك الصخرة ، وأنا أمر بحملها على فيل فتكون بين يدي جنودي لا يجاوزها أحد منهم .

فلما رأوا أن الهوى قد وقف به على حد الرضا بهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته ، فأمسكوا عنه واعتقدوا أن لا يراجعوه في ذلك .

وكان يقال : الهوى صداً يعلو العقل فلا تنطبع فيه صورة الحقائق .

وكان يقال : ما لم يبلغ الهوى حد اللجاج فهو نشوة السكر ، فإذا بلغ اللجاج فذلك دين السكر وقوة سلطانه .

(١) الخنشوار : اسم ملك من ملوك الهياطلة .

(٢) الهياطلة : شعوب آسيوية من غزاة العالم القديم ، أصلهم من سيبيريا ومنغوليا .

(٣) فيروز بن يزيد : ملك فارس بن يزيد بن شاهبور وهو أحد ملوك فارس الساسانيين . البداية والنهاية (٣١/٧) .

(٤) التخوم ، مفردا التخيم : وهو الحد .

وكان يقال : لا ترشد الهوى فى حال استيلاء الشهوة والغضب عليه ؛ لأنها حال احتجاب عقله ، وذلك أن الهوى أمك بالنفس لتقدم سلطانه عليها ، فاما سلطان العقل فطارئ مستفاد ، وللعقل حجابان وهما الشهوة والغضب ، فلا يزال العقل ناظرا إلى الهوى قاهرا له ما لم يحجبه غضب أو شهوة فحينئذ ينبسط سلطان الهوى وينفذ حكمه .

قال : فجمع فيروز مرزبته^(١) ، وهم أربعة يتبع كل سلطان منهم خمسون ألف مقاتل ، كان كل واحد منهم ضابطا لربع من أرباع مملكة بابل^(٢) ، وأمرهم بالتجهز لحرب الهياطلة ، ففعلوا وسار فيروز نحو الخنشوار فى جيوش يظن أنه الغالب ، وكان الخنشوار يضعف عن مقاومة مرزبان من مرزبنة فيروز ، وإنما كان ظفره بفيروز أولا لمكيدة ليس هذا موضع ذكرها .

وقد كان موبذان ، وهو عند الفرس كالنبي ، قال لفيروز حين رأى عزمه على غزو الخنشوار : لا تفعل أيها الملك ، فإن رب العالم يمهل الملوك على الجور ما لم يأخذوا فى هدم أركان الشريعة ، فإذا أخذوا فى ذلك لم يمهلهم ، وإن اليهود والموثيق ركن من أركان الشريعة فلا تعرض له بسوء ، فلم يلتفت فيروز إلى هذه المقالة وركب رأيه فى معصية نصحائه .

وكان يقال : يستدل على إدمار الملوك بخمسة أمور :

أحدها : أن يستكفى الملك بالأحداث ومن لا خبرة له بالعواقب .

والثانى : أن يقصد أهل مودته بالأذى .

والثالث : أن ينقص خراجه عن قدر مؤونة المملكة .

والرابع : أن يكون تقريبه وإيعاده للهوى لا للرأى .

والخامس : استهانتته بنصائح العقلاء وآراء نوى الحكمة .

وكان يقال : من عصى نصيحا فقد استفاد عدوا .

(١) المرزبان : جمع المرزبنة : الرئيس عند الفرس (كلمة فارسية) .

(٢) بابل : اسم ناحية من الكوفة والحلة ينسب إليها السحر والخمر ، وهى من أشهر مدن الشرق القديم وأكبرها ، وأتقاضها حالياً على نهر الفرات شرقى بغداد . معجم البلدان (١٢٦٨) .

وكان يقال : إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخيل الفكرى وضعفه ؛ فمن قوى تخيل فكره فهو فى سلطان الرأى غالب ، ومن ضعف تخيل فكره فهو فى سلطان الهوى غالب ، وعلى حكم هذا القانون فَمَنْ عدم الفكرة فى الأمور التحق بالبهائم .

ثم قال الشيخ الفارسى : وإن فيروز سار قاصدا نحو الخنشوار حتى إذا انتهى إلى تلك الصخرة التى نصبها الخنشوار علماً لتخوم أرضه ، واستحلف فيروز ألا يجاوزها . أمر فيروز بقلعها وحملها على فيل ، وأن يكون الذى يحملها بين يدي عسكر فيروز ، ونهى ألا يتجاوز ذلك الفيل أحد من المعسكر ، فما أبعد عن ذلك الموضع الذى كانت الصخرة فيه حتى جاءه رجل من ثقات أصحابه فأخبره ؛ أن أسواراً^(١) عظيم القدر من أساورته قتل رجلاً مسكيناً ظلماً وعدواناً ، وجاء أخو ذلك المسكين المقتول فاستغاث بفيزروز وتظلم من الأسوار قاتل أخيه ، فأمر فيروز بمال يرضيه به من دم أخيه ، فأبى قبول المال وقال : لا يرضينى إلا دم قاتل أخى ، فأمر فيروز بطرده فانطلق من فوره إلى الأسوار الذى قتل أخاه فشد عليه بخنجر فى يده ، فلما رآه الأسوار حرك فرسه هارباً بين يديه ، وانتهى الخبر إلى فيروز فتعجب من ذلك فنزل وزير من وزراء فيروز عن دابته ، وتقدم بين يدي دابة فيروز فسجد له ، فسأله فيروز عن أمره ، فذكر أنه يريد الخلوة معه فى مَهْمٍ عرض له ، فأمر فيروز فضرب له فسطاط فنزل فيه وأذن لذلك الوزير فدخل عليه وأمره بذكر ما عنده .

فقال له : أيها الملك السعيد : ملكت الأقاليم السبعة^(٢) وعمرت عُمر بيوراسف^(٣) فى مثل عزته وقوته ، لقد ظهرت غياته أول الأوائل بك بما ضربته لك من المثل فى أمر هذا الأسوار إذ كان أسواراً نجداً هرب بين يدي مسكين

(١) كلمة فارسية تعنى القائد الجيد الرمى بالسهم الثابت على ظهر الفرس .
(٢) الأقاليم السبعة : هو تقسيم الحكماء للمعمور من الأرض وهو يبدأ من الشمال إلى الجنوب ، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله . مقدمة ابن خلدون . (٨٩) .

(٣) بيوراسف : من ملوك الفرس العظماء ، وكان لقبه الضحاك وهو أعراب ذَهَاك معناه : ذو عشرة آفات مفاتيح العلوم (٦٣) .

فى يده خنجر ، وما ذلك إلا لبغيه وتعديه .

فقال فيروز : إنه لم يفر منه لعجزه عنه ؛ بل لخوفه منا ، ولم يكن ليفعل تلك الفعلة القبيحة ثم يشفعها بمنثلها .

فقال الوزير : أيها الملك : رأيت إن دعوته إلى مبارزة ذلك المسكين ، وأمنته من سطوتك فظهر ذلك المسكين عليه ، أما تعلم أن هذا مثل ضربه لك قِيم العالم^(١) ؟ .

فقال الملك : لأفعلن ذلك ، ثم إنه أحضر الأسوار فأمنه وأمره بمبارزة ذلك المسكين الثائر بأخيه ، فأجاب إلى ذلك وجمع عليه سلاحه وركب فرسه ، وأتى بذلك المسكين ، فعرض عليه مبارزة الأسوار فأظهر الرغبة فيها والحرص عليها ، فخوف من الهلاك فلم يخف .

فقيل له : أما ترى درعه وسلاحه وفرسه ، أما سمعت بفروسيته ونجدته وإقدامه ، إنك مهلك نفسك ومستميت ، ولا إثم علينا فيك .

فقال المسكين : دعونى وإياه ، فإنه على فرس الغرور وأنا على فرس البصيرة ، وهو لايس درع الشك وأنا لايس درع الثقة ، وهو مقاتل بسيف البغى ، وأنا مقاتل بسيف الحق .

فقال الوزير لفيزوز : أيها الملك : إن كلام هذا المسكين أبلغ فى التمثيل^(٢) والموعظة من ظفره بهذا الأسوار ، فصن أسوارك واستبق نفسه ولا تعرضه للهلكة بقاء هذا المسكين ، واعمل فى رضاء هذا المسكين بالإحسان إليه ، فإن لم يرضه إلا القصاص ، فاقض له بالعدل ألوف منك ، واستكم عناية الأول الأخذ بك بعنايتك بالحق الذى يرضيه العمل به ويسخطه اجتنابه .

فقال فيروز : لا بد من أن أظلى بينهما وأنظر إلى ما يكون منهما ، إن كان المسكين يختار ذلك ويرغب فيه ، فأعسا وعرض مبارزة الأسوار على المسكين ، فأصر على الرغبة فيها والحرص عليها ، وخوفه الهلاك فلم يزد تخويهم إلا جراءة وإقداما .

(١) القِيم على الأمر : متوليه ، وقِيم العالم : خالصه ومتوليه سبحانه وتعالى .

(٢) التمثيل : تصوير الشيء كأنه ينظر إليه .

فَقِيلَ لِلْأَسْوَارِ : أَلْقِهْ وَلَا تَخْضِ عَنْهُ^(١) ، فَحَمَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ فَالْتَقِيَا ، وَقَبِضَ الْمَسْكِينُ عَلَى شَكِيمَةِ^(٢) فَرَسِ الْأَسْوَارِ وَضَرَبَهُ الْأَسْوَارُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً تَطَاطَأُ لَهَا الْمَسْكِينُ ، فَأَصَابَ ذِيَابَ السَّيْفِ^(٣) أَلْبَيْتَهُ^(٤) فَأَثَرَ فِيهَا أَثْرًا لَيْسَ بِالْكَبِيرِ ، ثُمَّ نَارَ إِلَيْهِ الْمَسْكِينُ فَضَرَبَهُ بِالْخَنْجَرِ فِي عُنُقِهِ وَجَذَبَهُ فَصْرَعَهُ ، ثُمَّ ضَرَبَهُ وَهُوَ مَلْقَى ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَأَدْخَلَ سِنَ الدَّرْعِ حَلَقَاتٍ فِي جَوْفِهِ ، وَقَضَى عَلَيْهِ . فَبَاتَ فَيَرُوزُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي مَوْضِعِهِ ذَلِكَ يَفْكَرُ فِيمَا يَأْتِيهِ مِنَ الْأَمْرِ ، ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَعَادَ لِهَوَاهُ فَفَقِدَ لَوَجْهَهُ .

وَكَانَ يُقَالُ : أَوَّلُ الْهَوَى هَوَانٌ^(٥) ، وَآخِرُهُ هَوْنٌ^(٦) .

وَكَانَ يُقَالُ : الْهَوَى طَاغِيَةٌ ، فَمَنْ مَلَكَ أَهْلَكَه .

وَكَانَ يُقَالُ : الْهَوَى كَالنَّارِ إِذَا اسْتَحْكَمَ إِيقَادُهَا عَسَرَ إِخْمَادُهَا ، وَكَالسِّيُولِ إِذَا اتَّصَلَ مَدَاهَا تَعَزَّرَ صَدَاهَا .

وَكَانَ يُقَالُ : لَيْسَ الْأَسِيرُ مِنْ أَوْتَقِهِ عِدَاهُ أَسْرًا ، إِنَّمَا الْأَسِيرُ مِنْ أَوْتَقِهِ هَوَاهُ قَسْرًا وَأَرْهَقَهُ خَسْرًا .

قَالَ الشَّيْخُ : وَلَمَّا عَلِمَ الْخَنْشَوَارُ قَصْدَ فَيَرُوزَ لِحَرْبِهِ ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى التَّنْبِيْثِ وَوَكَّلَ أَمْرَهُ إِلَى الْأَوَّلِ الْأَخْرَ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَغْضِبَ لِعَهْوِهِ وَمَوَائِقِهِ الَّتِي لَمْ يَرِعْ فَيَرُوزَ حَقَّهَا ، وَلَاخَافَ تَبِعَةَ نَكْتَهَا ، وَأَخَذَ مَعَ ذَلِكَ بِحِظِّهِ مِنَ الْحَزْمِ فَسَدَ ثَعْوَرُهُ ، وَجَمَعَ إِلَيْهِ جُنُودَهُ ، وَأَعَدَّ لِلْقَاءِ فَيَرُوزَ عِدَّتَهُ ، وَأَمَهَلَ حَتَّى وَطِئَ فَيَرُوزَ كَثِيرًا مِنْ أَرْضِهِ وَتَوَسَّطَ مَمْلَكَتَهُ ، وَعَاثَ فِي بِلَادِهِ^(٧) ، وَسَاءَ عَلَى رَعِيَّتِهِ أَثْرُهُ ، فَهَضَّ إِلَيْهِ فَفَاجَأَهُ وَصَدَقَهُ الْجَلَادُ ، فَانْكَشَفَ فَيَرُوزَ مِنْهَزْمًا وَأَسْلَمَ مَا كَانَ فِي يَدَيْهِ ، فَقَتَلَ الْخَنْشَوَارَ رِجَالَهُ وَغَنَمَ أَمْوَالَهُ وَأَمْعَنَ فِي طَلْبِ فَيَرُوزَ حَتَّى ظَفَرَ بِهِ فَقَتَلَهُ ، وَأَسْرَ أَهْلَ بَيْتِهِ وَحَمَاةَ أَصْحَابِهِ ، فَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ .

(١) أَيْ لَا تَغْفَلَ عَنْهُ .

(٢) لِحَامِ الْفَرَسِ .

(٣) أَيْ طَرَفِ السَّيْفِ .

(٤) الْإِلَاحَةُ : الْعَجِيْزَةُ أَوْ مَا رَكِبَ الْعَجْزَ وَتَدَلَّى مِنْ شَحْمٍ وَلَحْمٍ .

(٥) الذَّلُّ .

(٦) ضَعْفٌ .

(٧) أَيْ أَفْسَدَ فِي بِلَادِهِ .

فلما سمع المأمون ما ضرب له الفارسي مثلاً ، أقبل عليه مستبشراً وقال له: قد سمعنا مقالتك فصادفت منا قبولا لها ، وشكراً عليها وسروراً بها ، فيماذا ترى فيما دعوناك إليه من توحيد الله عز وجل ؛ الذي أجزل من العقل حظك ، وفتق بالمعرفة فكرك ، وأنطق بالحكمة لسانك ، وقطع بمحمد ﷺ عنرك (١) .

فقال الشيخ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فسر المأمون بإسلامه وأجزل صلته ، وقرب منزلته ، فألحقه بإضافة أصحابه ، وأمره بملازمة بابه ، فما لبث إلا أياماً قلائل حتى لحق بربه ، وعمل المأمون برأيه ، فأنجح الله عمله ، وبلغه من الخلافة أمله .

(١) أى لا حجة لك فى شركك ببلوغك رسالة محمد ﷺ .

السلوانة الثانية

سلوانة التأسى

أنزل الله ربنا تقديس اسمه من السورة المذكور فيها الأحزاب آيات معجزات طبقن المفصل المقصود بهذا الكتاب وهو تأسى الملوك فى طوام العوام^(١) ، والله ربنا المحمود على الهداية إليها ، والدلالة عليها ، وذلك قوله سبحانه فى المتألمين^(٢) على خليفته فى أرضه ، الداعى إلى مندوبه وفرضه ، صلى الله عليه وسلم ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾^(٣) [الأحزاب : ١٠] .

وقوله ﴿هَذَا الَّذِي آتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلُّوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب : ١١] .
وقوله فى تردد من ضعفت بصيرته حينئذ ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ [الأحزاب : ١٠]

وقوله فى نجوم النفاق وجرأة أهله على إظهار ما كانوا يسترونه حين رأوا أن المؤمنين قد ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديدا ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] .

وقوله فى القاعدين عن نصرة الحق المخذلين من أراد نصره ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب : ١٨] وقوله فيهم ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقوله فى المتسللين لوإذا ﴿وَيَسْتَكْذِبُونَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِىَ يَقُولُونَ إِنْ بَيَّوْتَنَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب : ١٣] .

وقوله فى تجار أسواق الفتن الذين يتبعون كل سماع ، ويستجيبون لكل داع ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا﴾ [الأحزاب : ١٤] .

وقوله فى تعجيز الفرار عن مغالبة القدر ﴿قُلْ لَنْ يَتَفَعَّلَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب : ١٦] .

(١) أى حسن أخلاق العوام .

(٢) المتألمون : مفردا المتألم وهم المحرضون المعاندون .

(٣) انظر تفسير سورة الأحزاب فى الدر المنثور للسيوطى (٣٤٦/٥) .

والتي بعدها ، وهو قوله سبحانه ﴿فَلَنْ مَن ذَا الَّذِي يَغْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧] .

فهذه جمل طوام العوام والامتحان بها ، ثم إن الله سبحانه دل من امتحن بها على ما أدب به رسوله ﷺ بقوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] .

ومما أدب الله به رسوله عليه السلام ، التأسى ، قال عز من قائل ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] .

ثم عرف الله رسوله عليه السلام أن إضاعة التأسى وترك العمل به لا يجلب إليه حظا فقال ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ﴾ [الأنعام: ٣٥] .

واعلم أن التأسى بهم مقترض عليه بقوله ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِمَّن الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] . قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمِ اهْتَدَوْا﴾ [الأنعام: ٩٠] فهذا أمر جزم .

وروى أن رسول الله ﷺ قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ أَدْبَىٰ أَدْبَىٰ فَأَحْسَنَ أَدْبَىٰ﴾^(١) .

فالتأسى مما أدب الله به رسوله بل مما افترضه عليه كما بيّنا ، ومعنى التأسى عند الأئمة أن تنظر إلى أسى غيرك ، أي حزنه ، وأنه مثل أساك ، أي مثل حزنك ، فتصبر . والأسى : هو الحزن ، ولا يعجبني هذا ، وهو عندي مأخوذ من قولهم : أسوت الجرح والجريح ، أي داويت ، والأسى : هو الطبيب المداوى ، فكان معنى التأسى : التطبيب والتداوى بالصبر ، والأسوة : اسم من هذا ، والتأسى : تفعل من الأسوة ، ولو كان علي ما ذهبوا إليه لكان معنى التأسى ، التحزن تقول : أسيت ، أي حزنت ، وتأسيت أي تحزنت .

(١) أورده المناوي في الفيض (٢٢٤/١) عن ابن مسعود وقال : إسناده ضعيف ، وقال السخاوي : ضعيف ، وذكره المتقى الهندي في كنز العمال (٣١٨٩٥) وعزاه لابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود ^{رضي الله عنه} .

خير نبوى فى التأسى

مما رويناه أن النبى ﷺ قال : «انظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ فَوْقَكُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزِدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (١) .

قال محمد عفا الله عنه : إن هذا الحديث لحسن الموقع مما نحن فيه ، ولا ينبغى أن يقصر لفظه عن إطلاق مفهومه وموجب عمومه ، والذي يوجب عمومه : أنه أمر لمن كان فى نعمة دقيقة بأن ينظر إلى من هو فى نعمة أدق منها ، وأمر لمن كان فى بلاء بأن ينظر إلى من هو أشد من بلائه ، فإنه دونه وأسفل منه فى حظ المعاناة المطلوبة ، وهذا المخفف عنه حظه أوفر وأعلى قدرا للنعمة منعم عليه ، ومحسن إليه بما يفوق ما أنعم به على غيره ، وذو البلاء منعم عليه بنقص بلائه عن بلاء غيره ومعافاته من الابتلاء بتلك الزيادة التى ابتلى بها غيره ، وإنما كان هذا الخبر بليغا فى باب التأسى ؛ لأنه ينقل مستعظم البلاء الذى نزل به إلى أن يستصغره بإضافته إلى ما ابتلى به غيره ، ويخصه على ما فضله به من حظ العافية التى فضل بها على غيره ، وهذه درجة أعلى من درجة التأسى المطلق لأن التأسى المطلق لا يفيد حضا على شكر ، ولا يصور النعمة المخففة فى صورة النعمة ، وإنما يثمر الصبر خاصة ، وهذا الحديث يثمر الصبر ثم الشكر .

أسجاع وأبيات حكمية فى التأسى

التأسى جنة البلاء ، وسنة النبلاء درج الاضطبار (٢) ، كما أن الجزع درك التبار (٣) ، وإنه ينبغى لذى البصيرة أن يرى النعم فى صورة العواري المرتجة (٤) ، والودائع المنتزعة ، فمتى لم يفعل ذلك أعظم فقدما ، وجور المنعم إذا استردها ، كما ينبغى له الأيذهل عن حظوظ جنسه منها ودواتهم فيها

(١) أخرجه الإمام مسلم : كتاب الزهد والرقائق (٩) عن أبى هريرة . وذكره المتقى الهندي

فى كنز العمال (٦٤٢٤) وعزاه للبيهقى عن أبى هريرة ﷺ .

(٢) درج الاضطبار : مسالكه وطرقه .

(٣) الهلاك .

(٤) العواري ، مفردا العارية : وهو ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده لك .

، فإذا زالت عنه وصارت إليهم لم ينكر منهم أخذهم أنصباؤهم^(١) وتقاضيتهم
 حظوظهم ، وليتأس بصيرهم عند حوزة^(٢) لها دونهم فيصير لدولتهم الخالفة ،
 كما صبروا لدولته السالفة ؛ لأن صدقة المتصدقين وإقراض المقرضين وضيافة
 المضيفين ، وما يلتحق بذلك من ضروب المواساة في المال وفي القوة وفي
 الجاه إنما ندب إليه المواسون فيه ليستبقوا النعم بإعطاء الجنس حظوظهم منها ،
 وفي هذه الجملة الحكمة لمن تكبرها قنعان ، والله المستعان .

أنشد في بعض الملوك لنفسه في حال شديدة نزلت به :

نَحْنُ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ بَطْشًا وَعِلْمًا وَلَنَا الْمُحْتَدُ الْأَغْرُ الْأَعَزُّ^(٣)
 وَلَنَا أَنْفُسٌ عَوَارِفٌ بِالْدَهْرِ نَأْسَى حِينَ الْأَسَى يُسْتَعَزُّ^(٤)

وحضرت عنده في يوم من أيام شبكته ، فأنشدني لنفسه :

قَرِيبِي دَهْرِي فَلَمْ يَلْقَى أَطْمَعُ فِي تَأْيِيدِ تَقْرِيْبِيهِ
 ثُمَّ نَبَا عَنِّي فَلَمْ أَجْزَعْ مِنْ إِصْنَاتِ تَعْذِيْبِهِ^(٥)
 يَلْقَى

والحمد لله على حكمته

ثم قال لي : أجز ، فقلت : فقوتى منه وحولى به

وقال لي يوما وقد حادثته بما يبعثه على التأسي : أنشدني في ذلك شعرا ،

فأنشدته للخنساء :

أَلَا يَا صَخْرُ لَا أَسْأَلُكَ حَتَّى أَفَارِقَ عَيْشَتِي وَأُزُورَ رَمْسِي^(٦)
 وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِيْنَ حَوْلِي عَلَى أَحْبَابِهِمْ لَقَاتَلْتُ نَفْسِي
 وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزَّى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

فقال لي : هذا أخلق من طيلسان بن حرب ، اسمع ، وأنشدني لنفسه :

(١) الحصنة من الشيء أى أنصبتهم .

(٢) أى عند حصوله عليها .

(٣) المحتد : الأصل والنسب .

(٤) عوارف ، مفرد ما عارفة : وهو العالم بالشيء .

(٥) نبا عنى : أعرض عنى . إصنات تعذيبه : أى إكحام وشدة تعذيبه .

(٦) رمسى : قبرى .

نَفِيضٌ كَمَا يَفِيضُ النَّيْلُ جُوداً وَتُقَدِّمُ مِثْلَ إِقْدَامِ الحُسَامِ (١)
 وَإِنْ نَزَلْتَ بِنَا كَبِيرُ الرِّزَايَا تَأَسُّؤُنَا بِأَهْلِ كِرَامِ (٢)

روضة رائقة ، ورياضة فائقة

قيل لما عزم سابور بن هرمز (٣) على الدخول إلى بلاد الروم متكرراً متحسباً نهاء نصحاؤه وحذروه التفرير بنفسه في أمر يمكنه أن يستتیب فيه فعصاهم .

وكان يقال : أشقى الناس وزراء الأحداث من الملوك ، وعشاق القينات (٤) من الشيوخ .

وكان يقال : إنما عسر صرف الأحداث عن غي الهوى إلى رشد الرأي لأمرين ؛ أحدهما : قوة سلطان الشهوات عليهم ، والثاني : أن التجارب لم ترض عقولهم على مخالفة هواهم ، وذو الحنكة (٥) بخلاف ذلك .

ثم إن سابور توجه نحو بلاد الروم واستصحب وزيراً كان له ولأبيه من قبله ، وكان شيخاً ذا دهاء وحزم وسداد رأي وحنكة ، وبصر بالديانات واللغات ، وتبحر في العلوم وخبرة بالمكايد ، فسلم إليه سابور جميع ما يظن أن به إليه حاجة أو تدعوه إليه داعية ، وأمره أن ينحاز عنه في قرب منه ومراعاة لجميع أحواله في ليله ونهاره ، وتوجهها معاً نحو الشام (٦) ، فترى ذلك الوزير بزي الرهبان وتكلم بلسان الجلالة (٧) ، وتحرف بصناعة الطب الجراحی ، وكان معه

(١) الحسام : السيف القاطع .

(٢) الرزايا : مفردا الرزينة وهي المصيبة .

(٣) سابور بن هرمز : ملك فارسي لقب بذي الأكتاف وحمل الديانة المزدية واعتناقها .
 مفاتيح العلوم (٦٥) .

(٤) القينات ، مفردا قينة : وهي الأمة المغنية الجميلة .

(٥) أي الحكيم والخبير .

(٦) الشام : وقيل الشام ، وسميت بذلك لكثرة قراها ، وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((الشام صفوة الله من بلاده ..)) .
 الحديث . معجم البلدان (٦٩٤٦) .

(٧) الجلالة : من ولد يافث بن نوح عليه السلام وهو الأصغر من ولد نوح ، وبلادهم جليقية ،
 الروض المعطار (١٦٩) معجم البلدان (٣٢٠٥) .

الدهن الصينى الذى إذا دهنت به الجراحات برئت واندملت فى الحال .
قال محمد عفا الله عنه : قد رأيت جماعة ذكروا أنهم رأوا هذا الدهن
المذكور وحدثنى بعضهم أنه امتحنه بأن شرح اللحم ودهنه منه فالتأم مكانه ،
فكان ذلك الوزير فى مسيره نحو بلاد الروم وبعد ما دخلها ، يداوى الجرحى
بأدوية يضيف إليها شيئاً يسيراً من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة ، فإذا عنى
بواحد من نوى الأقدار داواه بذلك الدهن صرفاً فيبرأ مكانه ولا يأخذ على
المداداة أجراً ، فأنشر له فى البلاد ود وصيت بالعلم والزهد .

وكان يقال : من غرس العلم اجتتى النباهة ، ومن غرس الزهد اجتتى
المحبة ، ومن غرس الوقار اجتتى المهابة ، ومن غرس المداراة^(١) اجتتى
السلامة ، ومن غرس الكبر اجتتى المقنت^(٢) ، ومن غرس الحرص اجتتى اللذل ،
ومن غرس الطمع اجتتى الخزى ، ومن غرس الحسد اجتتى الكمد^(٣) .

وكان يقال : الأمم على اختلاف أدبياتها وأزمانها وبلدانها متفقة على حمد
أخلاق أربعة : العلم ، والزهد ، والإحسان والأمانة .

قيل : فانطلق سابور ووزيره منفردين إلا الوزير يراعى أحوال سابور أشد
المراعاة ، فلم يزا على ذلك حتى طوفا جميع الشام ، وتجاوزا الدروب وقصدا
القسطنطينية^(٤) ، فقدمها ، فذهب الوزير إلى البطرك - وتفسير هذا الاسم ،
أبو الآباء - فاستأن عليه فأذن له وسأله عما يريد فأخبره أنه هاجر من أرض
الجلالقة ليتشرف بخدمته ويدخل فى أتباعه ، وأهدى إليه هدية نفيسة حسن
موقعها من البطرك ، فقربه وأكرمه وأحسن نزله وألحقه ببطانته ، واختبره
فوجده لبيباً فأعجبه غاية الإعجاب وجعل الوزير يتأمل أخلاق البطرك ليصحبه
بما يوافقه وينفق عنده ويحسن موقعه منه .

(١) الحيلة والنفاق .

(٢) البغض والكراهية .

(٣) الحزن الشديد والهم .

(٤) القسطنطينية : مدينة عاصمة بيزنطة القديمة أو الدولة الرومانية الشرقية . بناها

قسطنطين الأول وجعلها مقر حكمه . معجم البلدان (٩٦١٣) .

وكان يقال : إذا أردت صحبة رئيس ، فانظر ما يستميله ويتفق عنده من الآلات فإن كنت مطيقا للعمل بها فى طلب إقباله عليك وحظوتك عنده ، فاقدم عليه وإلا فَرَضْ نفسك على ذلك حتى تعلم أنها قد أطاقته وأحكمته فتقدم على بصيرة .

قيل : فلما تأمل وزير سابور أخلاق البطرك وجده مائلا إلى الفكاهات معجبا بنوادر الأخبار ، فأخذ الوزير فى إتخافه من ذلك بكل نادرة غريبة ، وملحة عجيبة، فلم تطل المدة به فى صحبته حتى حلا بعينه وقلبه ، وصار أُلصق به من شعرات قصه^(١) ، وجعل مع ذلك يعالج الجرحى ولا يأخذ على ذلك عوضا ، فعظم قدره فى الناس ، وومقته^(٢) القلوب .

وكان يقال : إذا كانت القلوب مجبولة على مقة المحسنين كانت المحبة رقا، والأحرار يكرهون الاسترقاق ، فالحر على الحقيقة من فدى نفسه من رق المحسنين بمكافأتهم على إحسانهم جهده ، حتى إذا لم يستطع فليُرِقْ نفسه لهم معذورا ، وجعل الوزير يتعهد أحوال سابور فى كل وقت إلى أن صنع قيصر وليمة حشر إليها الناس على طبقاتهم وتهدد من تخلف عنها ، فأراد سابور حضورها ليطلع على هيئة قصر قيصر وسمته ونخائره ، فنهاه وزيره عن التغرير بنفسه فعصاه ، وتزيا بزى ظن أنه يستر به أمره ، ودخل دار قيصر مع من حضر ، وكان قيصر لما بلغه ما أيد الله به سابور من لطف القطنة ، وعظم الهمة ، وشدة البأس فى حال صباه حذره حذرا شديدا ، فبعث إلى حضرته بمصور ماهر ، فحكى صورة سابور فى مجلسه وحال ركوبه ، وغير ذلك من ضروب الأحوال التى شاهده المصور عليها ، وقدم بتلك الصور على قيصر ، فأمر قيصر بأن تصور تلك الصور على فرشه وستوره^(٣) ، وفى آلات أكله وشربه ، فصنع ذلك على ما أمر به ورسمه^(٤) .

ولما دخل سابور دار قيصر واستقر فى مجلسه وطعم مع من حضر ذلك المجلس، أتوا بالشراب فى كؤوس البللور والفضة والزجاج المحكم ، وكان فى

(١) القص : عظم الصدر ، المراد : أى قريب إلى قلبه ونفسه .

(٢) أحبته وتوددت إليه .

(٣) الستور ، مفردا الستر : ما يستر به المرء عند نومه .

(٤) أى كتبه .

المجلس رجل من حكماء الروم ودهاتهم ذو فراصة صادقة ، فلما وقعت عينه على سابور أنكره ، وجعل يتأمل شخصه ونظرتة فرأى عليه مخايل الرياسة ، فطفق يستشفه ولا يصرف بصره عنه ، فأتى ذلك المنقرس الرومى بكأس فيها صورة سابور ، فتأملها فانطبعت فى نفسه إنها مثال لذلك الشخص الذى أنكره ، وغلب على ظنه أنه سابور فأمسك القدح فى يده إمساكا طويلا ، ثم قال رافعا صوته : إن هذه الصورة التى فى هذا القدح تخبرنى أمرا عجيبا ، فقال له : ما الذى تخبرك هذه الصورة ؟ قال : تخبرنى أن الذى هى مثال له معنا فى مجلسنا هذا ، ونظر إلى سابور وقد تغير حين سمع مقالته فحقق ما ظنه به وأعاد القول ، فبلغ كلامه قيصر فأدناه وسأله ، فأخبره أن سابور معه فى مجلسه ، وأشار إليه فأمر قيصر بالقبض على سابور ، فقبض عليه ، وقرب من قيصر فسأله عن نفسه فتعلل بضروب من العلال ، فقال ذلك المنقرس : لا تقبلوا عذره فهو سابور لا محالة ، فأمر قيصر بقتله ليرعبه بذلك ، فاعترف لهم بأنه سابور .

وكان يقال : قلوب الحكماء تستشف الأسرار من لمحات الأبصار ، وطالما دلت أوائل المبصرات على أواخر المنتظرات .

وقيل : كما أن الأبصار مرآئى تتطبع فيها المشاهدات إذا سلمت من صدا الآفات ، فكذلك العقول مرآئى تتطبع فيها بعض الغايات إذا سلمت من صدا الشهوات .

وقيل : من الأدلة على مكاشفة الله القلوب ببعض الغيوب أن الإنسان قد يتوقع الشيء يكرهه أو يحبه ، ثم يكون ذلك الشيء الذى يتوقع على نحو ما توقع منه ، فقد يرى الإنسان فيحبه لغير إحسان فرط منه إليه أو يبغضه لغير إساءة جناها عليه ، ثم يكون منه الإحسان أو الإساءة .

قيل : ولما اعترف سابور بصدق ذلك المنقرس حبسه قيصر مكرما ، وأمر فعملت له من جلود البقر صورة بقرة كأعظم ما يكون من البقر ، وطبقت عليها الجلود سبع طبقات ، واتخذ لها باب من أعلاها فى ظهر الصورة يدخل إليها

ويخرج منه ، وجعلت فيها كوة^(١) من أسفلها فى موضع المبال ، وأمر سابور فجمعت يده إلى عنقه بجامعة من الذهب ذات سلسلة؛ ليتمكن معها تناول ما يصلحه من طعام وغيره ، وأدخل سابور فى جوف تلك الصورة وهذا بعد أن حشر قيصر جنوده واستعد لغزو بلاد الفرس ، ووكّل بتلك الصورة التى سجن فيها سابور مائة رجل من ذوى البأس والقوة يحملونها دولا بينهم ، وجعل على كل خمسة منهم رئيسا يضبط أمرهم ، وصرف أمر جميعهم إلى المطران — ومعنى هذا اللقب صاحب البلد ، إلا أنها رئاسة دينية ، وهو خليفة البطرك — فإذا نزل العسكر أنزلت الصورة فى متوسط العسكر وضربت عليها قبة تسترّها ، وأطاف بها خمسون من الموكلين بها ورؤساؤهم معهم ، وضربت حولها عشر قباب مستديرة بها ، فكان فى كل قبة خمسة ورئيسهم معهم ، وضربت للمطران قبة بمجاورة قبة سابور ، وضربت خارج القباب كلها خيمة يصنع فيها طعام الموكلين بقية سابور على حسب أقدارهم ومراتبهم ، وسار قيصر محتفلا فى جنوده وقد عزم على إخراج بلاد الفرس وتعفية^(٢) معالم ملكهم لعلمه أن لا دافع يدفعه عنهم.

وكان يقال : الحزم التزام مداواة^(٣) العدو مادامت لدولته ربح إقبال ، كما أن العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرت دولته وركنت ربح إقباله .
وكان يقال : العاقل لا يكون فى سلطان ملك لاجتماع فيه خصلتان : الانهماك فى الذات ، وإضاعة الفرص .

وكان يقال : تميز الملوك عن السوق إنما يكون بفضيلة الذات لا بفضيلة الآلات ، وفضيلة ذات الملك بخمس خصال : رحمة تشمل رعيته ، ويقظة تحوطهم، وصوله^(٤) تذب عنهم ، ولباية^(٥) يكيد بها الأعداء ، وحزامة ينتهز بها الفرص ، فهذه فضيلة الذات .

(١) خرق أو ثقب .

(٢) محو وإزالة .

(٣) مداراة ومداهنة .

(٤) سطوة وقدره .

(٥) عقل وحكمة .

وأما فضيلة الأدوات فباتخاذ المباني الوثيقة العليسة ، والملابس الأنيقة السرية^(١) والذخائر النفيسة السنينة ، والمطاعم الشهية والمراكب البهية ، فهذه فضيلة تفضل بها هذه الأدوات على ما دونها من أجناسها ، فيكون للقصر فضل على غيره من القصور ، وللتوب فضل على غيره من الثياب ، وللذخيرة فضل على غيرها من الذخائر ، وللطعام فضل على غيره من الأطعمة ، وللداية فضل على غيرها من الدواب ؛ فالفضيلة لهذه الأشياء لا لمالكها .

قيل : فلما سار قيصر^(٢) بجنوده ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها ، قال وزير سابور للطرق : إن مما استغدت بخدمتك والقرب منك الرغبة في صالح الأعمال وإنه لا عمل أنفس من تنفيس كربة عن مجهود^(٣) ، وجر نفع إلى مضطر ، وقد علمت كفايتي في معاناة الجرحى ، وإن نفسي لتتازعني إلى صحبة الملك قيصر في سفره هذا ، فلعل الله أن يستغذ بي نفسا سالحة يترحم على من أجلها ، ويقس قلبي بخدمتها ويحفظني لها ، فكره البطرك ذلك وقال له : قد علمت إنى لا أستطيع فراقك ساعة فكيف تطالبنى بالسفر البعيد عنى ، ما ظننت أنك تلقانى بما أكره ، وتسومنى ما يشق على احتماله ، كما لم أكن أظن أنك تؤثر شيئا من الأشياء على القرب منى والتحبب إلى ، فقد أزلتني عن حسن ظنى بك ، ولم يزل الوزير يضرع إلى البطرك ويتملقه^(٤) ويقرب له العود إلى أن سمح له بذلك ، فأذن له وزوده وكتب معه كتابا إلى المطران يخبره أنه قد بعث إليه سويداء قلبه وسواد بصره ، فلتحمله من نفسك بأعلى المراتب واستضىء برأيه فيما أشكل عليك ، فقدم وزير سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله معه في قبتة ، وجعل زمام أمره ونهيه بيده ، وجعل الوزير يتفق عند المطران بما يعجبه ويستميله بما يميل إليه ويطرفه كل ليلة

(١) أى الخالصة الجميلة .

(٢) قيصر : من كبار رجال الدولة والقواد في روما . أعاد تنظيم الإدارة الرومانية . تأمرت عليه الطبقة الأرستقراطية في مجلس الشيوخ فاغتيل . له تاريخ حرب الغال والحرب الأهلية . مفاتيح العلوم (٧٠) .

(٣) مكروب ذو محنة .

(٤) يتودد ويتلطف إليه .

بأخبار ممتعة ، رافعا بها صوته ليرسم سابور حديثه فيتسلى بذلك ويدس فى أحاديثه ما يحب أن يعلمه سابور من الأخبار ويفطنه له من الأسرار ، فكان سابور يجد لذلك أعظم راحة ، وكان الوزير قد أعد لتخليص سابور أنواعا من المكاييد^(١) رتبها وأسسها عندما قدم على المطران .

وكان يقال : من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط، وإن أضاف إلى هذا الغلط مخالفة الوزير لم يفلح ، وإنما كانت فطن الوزراء أنقب من فطن الملوك ؛ لأن الملوك يتفقهون أبدا فى سياسة من دونهم من الرعايا لا غير، والوزراء يتفقهون فى سياسة الملوك وسياسة الرعايا ، فهم أشبه شئء بالجوارح التى تصيد وتفسرس ويصيدها أيضا جوارح أشد منها ، فهى أعرف الجوارح بمكاييد الاحتراس ومكاييد الاكتساب .

وكان يقال : أحسن الوزراء حالا من أعد لكل أمر يجوز وقوعه ويمكن كونه عدة ، فإذا وقع الأمر قابله بما كان أعده له ، وأسوأ الوزراء حالا من توكل على لطف فطنته وقوة حيلته ودريته وممارسته ، فترك الإعداد للأمور قبل نزولها ثقة بنفسه ، وإنما هو فى ذلك بمنزلة من ترك تزوير القول وإعداده وترويته توكلا على فصاحة لسانه وقوة بديهته وحسن ارتجاله ؛ فيوشك أن يستولى عليه العى والحصر^(٢) فى بعض مقاماته ، وبمنزلة من ترك حمل السلاح توكلا على قوة بدنه وشجاعة قلبه ، فيوشك أن يظفر به عدوه فى بعض المواطن .

قيل : وكان من المكاييد التى أعدها وزير سابور أنه امتنع من مواكلة المطران، وزعم أنه لا يريد أن يخلط بالطعام الذى زوده البطارك طعاما غيره ؛ لما يرجو من بركته وبركة الاغتذاء به ، فكان إذا حصر طعام المطران أخرج هو من ذلك الزاد فانفرد بالأكل منه ، فلم يزل قيصر سائرا بجنوده حتى بلغ أرض فارس ، فأكثر فيها القتل والسبى ، وتغویر^(٣) المياه ، وقطع الشجر ، وإخراب القرى والحصون، وهو مع ذلك يواصل السير مبادرا ليستولى على

(١) المكاييد ، مفردها مكيدة : وهو المكر والحيلة .

(٢) أى العجز عن الكلام .

(٣) أى إذهاب وتضييع الماء فى الأرض .

ملك سابور ، وبيّغت^(١) من بها من رؤساء الفرس قبل أن يملكوا عليهم رجلا ، ولم يكن للفرس همٌ إلا الفرار بين يديه والاعتصام منه بالمعقل ، فلم يزل قيصر على ذلك حتى بلغ مدينة سابور وقرارة ملكه وهي المسماة جنديسابور^(٢) فأحاط بها جنوده ، ونصب عليها المجانيق^(٣) ، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة في دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها ، وكل هذا قد علمه سابور على التفصيل مما يعلمه إياه وزيره ويدسه في أحاديثه من الإشارات والرموز والكنيات ، وكان سابور لم تسمع منه كلمة منذ سجنه قيصر في تلك الصورة .

فلما عرف سابور أن قيصر قد ثقلت وطأته على أهل جندى سابور وقد نلم الأسوار^(٤) بالمجانيق ، وأشرف على افتتاح المدينة ؛ عيل صبره^(٥) ، وساء ظنه بوزيره وجزع ويئس من النجاة مما هو فيه .

فلما جاء الموكل بطعامه قال له : إن هذه الجامعة قد نالت مني منالا عظيما وضعفت منها ، وسمعتها وزير سابور ؛ فعلم أن سابور قد جزع وساء ظنه وفطن لما قصده سابور .

فلما جن الليل وجلس لمسامرة المطران قال له : لقد ذكرت الليلة حديثا عجيبا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة ، ولو ددت أنى كنت حدثته للبطرك قبل سفرى عنه فقال له المطران : إنى راغب إليك أن تحدثنى به الليلة أيها الحكيم الراهب .

فقال الوزير : نعم وكرامة ، ثم اندفع يحدثه رافعا صوته ليسمع سابور فقال : إنه كان عندنا بجليقية^(٦) فتى وفتاة فى نهاية الحسن والظرف ، اسم الفتى ما معناه : عين أهله ، واسم الفتاة ما معناه : سيدة النار ، وكانا زوجين

(١) يفاجىء .

(٢) جند يسابور : مدينة إيرانية فى إقليم خورستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه .

وهي مدينة خصبة واسعة الخير بها النخل والزروع والمياه . معجم البلدان (٣٢٧٢) .

(٣) المجانيق ، مفردا منجنيق ؛ وهي آلة حربية ترمى بها القذائف .

(٤) أى هلك وهدم .

(٥) أى نفذ صبره .

(٦) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الأندلس فى أقصاه من جهة

الغرب ، معجم البلدان (٣٢٠٥) .

مؤتلفين متحابين لا يبتغى أحدهما بالآخر بدلاً ، وإن "عين أهله" جلس يوماً مع أصحاب له يتحادثون فتذاكروا النساء إلى أن وصف أحدهم امرأة بالجمال البارع والظرف الرائع اسمها ما معناه : سيدة الذهب فوق قلب عين أهله ميل إليها ، فسأل الواصف لها عن منزلها فنكر له أنها بقرية غير قرية عين أهله ، ففكر عين أهله في أمرها وخامره حبها وطمحت نفسه إليها طموحاً شديداً .

وكان يقال : العقل كالبعل ، والنفس كالزوجة له ، والجسم كالبيت لهما ، فإذا كان سلطان العقل على النفس مبسوطاً اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرأة التي قهرها بعلمها بمصالح نفسها وبيتها وولدها فصلحت الجملة ، وإذا كان السلطان للنفس على العقل كان سعى النفس فاسداً ونزاعاتها مذمومة كفعل المرأة التي قهرت بعلمها .

قيل : فانطلق "عين أهله" إلى القرية التي تسكن بها سيدة الذهب ، وطلب منزلها حتى عرفه ، ولم يزل يتردد إليه حتى رآها فرأى منظراً عجيباً ولم تكن أحسن من امرأته . ولكنه كان يقال : من ضرورة النفس أن تحن إلى التنقل فنى الأحوال إذا كانت نقلت بالتركيب إلى عالم الكون ، ثم تنتقل بالنفريق إلى عالم الفساد ، وما افتتح أمره واختتم بالنقلة ، فألقى الأحوال بتوسطه للنقلة ، ونازعت عين أهله نفسه إلى الاستكثار من رؤية سيدة الذهب فلزم المعاودة إلى منزلها والتمتع بتأملها حتى فطن له بعلمها ، وكان جليقياً غليظ الطبع ، قاسى القلب شديد البطش يسمى : الذئب ، فرصد عين أهله حتى مر به ، فلما رآه وثب عليه فقتل فرسه ، ومزق ثيابه ، وتعتعه^(١) وعنف عليه ، واستعان بأصحاب له ، فاحتملوا عين أهله وأدخلوه إلى دار الذئب وربطوه إلى سارية في بيت من بيوتها ، ووكل به الذئب عجوزاً قطعاً اليد ، جدعاء الأنف^(٢) ، عوراء العين ، شوهاء الحالة ، فلما جن الليل أوقدت تلك العجوز ناراً بالقرب من عين أهله ، وجلست تصطلي^(٣) ، فتذكر عين أهله ما كان فيه من السلامة والرفاهية والعز ، فزفر

(١) ضربه بعنف .

(٢) أى مقطوعة الأنف .

(٣) تستدفىء .

زفرة عالية ، فأقبلت عليه العجوز وقالت له : أيها الفتى : ما ذنبك الذى أوردك
مورد الذلة والشدة ؟ .

فقال عين أهله : ما علمت أن لى ذنبا . فقالت العجوز : هكذا قال الفرس
للخنزير فلم يصدق الخنزير ، ثم باحثه عن أمره ؛ فظهر ما خفى منه وعلم
صدق ظن الخنزير ، فقال عين أهله للعجوز : إن رأيت أن تحدثينى بذلك وكيف
كان فإنك تحسنين إلى به .

فقالت العجوز : ذكروا أن فرسا كان لرجل من الشجعان فكان يكرمه ويحبه
ويحسن القيام عليه ، ويعدده لمهماتة ولا يصبر عنه ساعة ، وكان يخرج له فى
الغدوات إلى مرج^(١) فيزيل عنه سرجه ولجامه ويطيل رسنه^(٢) ، فيتمرغ
ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده ، وأنه خرج به يوماً إلى المرج ونزل عنه ،
فلما استقرت قدمه على الأرض نفر الفرس وجمع ومر يعدو بسرجه ولجامه
فطلبه الفارس يومه كله فأعجزه ، وغاب عن عينه عند غروب الشمس ، فرجع
الفارس إلى أهله وقد يئس من الفرس ، ولما انقطع الطلب عن الفرس وأظلم
عليه الليل جاع ، فرام^(٣) أن يرعى ، فمنعه اللجام ، ورام أن يتمرغ ، فمنعه
السرج ، ورام أن يستقر على أحد جنبيه ، فمنعه من ذلك الركابان ، فبات بشر
ليلة . ولما أصبح ذهب يبتغى فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه
إلى ضفته الأخرى فإذا هو بعيد القعر فسبح فيه ، وكان حزامه ولبيه^(٤) من جلد
لم يبالغ فى دبغه ، فلما خرج من النهر أصابت الشمس الحزام واللبب فيبسا ،
واشدت عليه ، فورم لبايه ومحزمه واشتد الضرر عليه إلى ما به من الجوع ،
فلبث بذلك أياما إلى أن ضعف عن المشى ، فقام فمر به خنزير فهم بقتله ، ثم
عطفه عليه ما رأى به من الضعف ، فسأله عن حاله فأخبره بما هو فيه من
إضرار اللجام واللبب والحزام به ، وسأله أن يصطنع عنده معروفا ويخلصه

(١) الأرض الواسعة كثيرة العشب .

(٢) حبله وزمامه .

(٣) أراد .

(٤) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة .

مما ابتلى به ، فسأله الخنزير عن الذنب الذى استحق به تلك العقوبة ، فزعم
الفرس أن لا نذب له .

فقال له الخنزير : كلا ؛ بل أنت كاذب فى زعمك ، أو جاهل بجرمك ، فإن
كنت يا فرس كاذبا فما ينبغى لى أن أنفس عنك خناقا ، ولا أن اصطنع عندك
معروفا ولا أن أتخذك وليا ، ولا أن ألتمس عندك شكرا ، أو أطلب فيك أجرا .
وأنه كان يقال : إذا رأيت نفس الكذاب قد تشبث بها عالم الفساد فكلها إليه ،
فإنه اللائق بها لفساد تركيبها ، والدليل على فساد تركيب نفس الكذاب أنها
مضرة به ، معرضة عن الحقيقة فى الحوادث ، ونزاعة إلى العدم المحض (١) ،
فتتصور العدم وجودا ، والباطل حقا وتصور ذلك فى نفس المغتر بها إلى
الراكن إلى قولها .

وكان يقال : احذر مقارنة نوى الطيباع المرذولة (٢) ؛ كيلا تسرق طباعك
من طباعهم وأنت لا تشعر .

وكان يقال : أصعب ما يعانىه الإنسان ممارسة صاحب لا تحصل منه
حقيقة .

وكان يقال : لا تطمع فى استصلاح الرذل والحصول على مضافاته ، فإن
طباعه أصدق إليه منك فلن يترك طباعه لك .

ثم قال الخنزير : وإن كنت يا فرس جاهلا بجرمك الذى استوجبت به هذه
العقوبة فجهلك بذنبك أعظم منه ، فمن جهل ذنوبه أصر عليها ولم يرج فلاحه .
وكان يقال : احذر الجاهل فإنه يجنى على نفسه ، ولست أحب إليه منها .

وكان يقال : ما شئ أشبه بالكذب من الجهل ، وذلك لأن الكذاب يتناسى
الصورة والقضية المحسوستين ، ويتخيل الكذب الذى هو ضدهما حتى ينطبع
ذلك فى عقله ويترك الصواب عمدا إلى غيره ، والجاهل يرى الأشياء على
خلاف ما هى عليه ، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا ، وإنما الفرق بين
الجاهل والكاذب : أن الكاذب يأتى ما يعلم خطأ فيه ، والجاهل لا يعلم ذلك ،

(١) الفناء .

(٢) الخسيسة والذئبة .

فهو على نفسه وعلى غيره أشد جنابة من الكاتب .

فقال الفرس للخنزير : ينبغي لك ألا ترهد في اصطناع المعروف ، فقال الخنزير : إني لست بزاهد في ذلك ، ولكنه كان يقال : العاقل يتخير لمعرفه كما يتخير البائر لحبوبه التي يبذر ما نكا^(١) من الأرض ، فحدثني يا فرس عن ابتداء أمرك فيما نزل بك وعن حالك قبل ذلك لأعلم من أين دهيت ، فحدثه الفرس بجميع أمره وكيف كان عند فارسه ، وكيف فارقه وما لقي في طريقه إلى حين اجتماعه بالخنزير .

فقال له الخنزير : قد ظهر لي الآن أنك جاهل بجرمك وأن لك ذنوباً ستة ، أولها : خذلانك فارسك الذي أحسن إليك وأعدك للمهمات ، والثاني : كفرك لإحسانه ، والثالث : إضرارك به في طلبك ، والرابع : تعديك على ما ليس لك وهو السرج واللجام والخامس : إساعتك لنفسك بتعاطيك التوحش الذي لست له أهلاً ولا لك عليه مقدره ، والسادس : إصرارك على ذنبك وتماديك في غوايتك ، فقد كنت متمكناً من العود إلى فارسك ، والاستقالة من فارط جهلك قبل أن يوهنك اللجام بالجوع واللبب والحزام بالضنك^(٢) .

فقال الفرس للخنزير : أما إذ عرفتي نوبى وأيقظتني لما كنت ذاهلاً عنه ، محجوباً بحجاب الجهل ، فانطلق الآن ودعني فإني مستحق لأضعاف ما أنا فيه .

فقال الخنزير : أما إذ عرفت وقطنت لهذا الغدر ، ولمت نفسك ، ووبختها واخترت لنفسك العقوبة على جهلها ، واستعملت الحكمة التي وعيتها ؛ فإنك حقيق بأن ينفس عنك ، وإنه قيل : إن الأب لوقا^(٣) كتب على باب بيته : إنه لمن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف عند قدرها ، فمن كان بهذه الصفة ؛ فليدخل والآن الرجوع حتى يكون بهذه الصفة .

ثم إن الخنزير قطع عنان اللجام فسقط وقطع الحزام فنفس عن الفرس .

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

(١) أي ما جاز وحسن من الأرض .

Bibliothèque Alexandrine

(٢) الضيق والضعف .

(٣) لوقا : قديس إنجيلي . رفيق بولس الرسول في أسفاره . كان طبيبياً كتب إنجيله نحو

٦٧م. وهذا مما يدعيه رهبان وأنصار المسيحية .

قال : ولما سمع عين أهله ما خاطبته به العجوز ، وفهم ما ضربت له من الأمثال أقبل على العجوز وقال لها : قد صدقت فيما نطقت وضربت لى مثلاً كشف لى عن جلية أمرى^(١) ، وأفدنتى حكماً لا كفاء لها ، وأدبتى فتأدبت ، ووعظنتى فاتعظت ، ثم حدثها حديثه ، ورغب إليها فسى أن تمن عليه بالاصطناع وتطلقه كما فعل الخنزير بالفرس .

فقال له العجوز : إنك غر^(٢) لا بصيرة لك بالأمور ، وإن الذى سألتنى لا يمكن فعله الآن ولعلى أن أجد لك فرجاً ومخرجاً مما أنت فيه ، فعليك بالصبر ، وأمسكت العجوز عن مخاطبته .

قال : فلما انتهى الوزير فى حديثه إلى هذه الغاية ، أقبل على المطران وقال له : إنى أحس فى نفسى فتوراً ، وفى رأسى صداعاً ولا يمكن الليلة إتمام الحديث ولعلى أن أكون فى الليلة القابلة نشيطاً إلى ذلك قديراً عليه ، فأكمل مسرتك بإكماله ، ونهض إلى مضجعه .

فجعل سابور يتصفح^(٣) حديث وزيره ، ويتأمل الأمثال التى وصفه بها ففهم أن الوزير كنى عنه بعين أهله ؛ لأنه ملك فارس . وكنى عن مملكته وإقليم بابل بسيدة النار ؛ لأن رعيته يعبدون النار ، وكنى عن بلاد الروم بسيدة الذهب ، وكنى عن طموح نفس سابور إلى رؤية مملكة الروم بطموح نفس عين أهله إلى سيدة الذهب ، وكنى عن أخذ قيصر له بقبضة الذئب على عين أهله ، وقصد بما ضربه له من الأمثال الحكمية ؛ تأديبه على شرهه وتغريره بنفسه ومخالفة أصحابه ، وكنى عن نفسه وحاله وعجزه وحزنه وذلك فى خدمة المطران وطلبه مرضاته وتملقه بالعجوز القطعاء الجدعاء العوراء المشوهة الخلق ، وعرفه أنه لا يمكنه تخليصه فى ذلك الوقت ، وأنه ساع فى خلاصه ، فسكنت نفس سابور لما فهم ذلك وعاونته نقتة بوزيره واستروح ريح الفرج ، ولبت بذلك ليلته ووعدها الليلة القابلة .

(١) أى حقيقة أمرى .

(٢) الغر : من لا خبرة له .

(٣) يتأمل ويتدبر .

فلما تعشى المطران وأخذ مقعد المسامرة قال لوزير سابور : أيها الراهب الحكيم أخبرني ما كان من أمر عين أهله وكيف كان عاقبة شدته ، وهل خلصته العجوز من وثاق الذئب أم لا ؟ ، فإن نفسي إلى علم ذلك متطلعة وأراك الليلة صالح الحال .

فقال الوزير : سمعاً لقولك وطاعة لأمرك ، ثم أقبل عليه يحدثه فقال : إن عين أهله أقام على حالته موقفاً طول ليلته تلك ، فلما أصبح دخل عليه الذئب فتهدده بالقتل وزاده إلى وثاقه قيلاً ثقيلًا وخرج عنه ، فقطع عين أهله نهاره ذلك بالأمانى ، فلما جنه الليل قلق واستوحش وبكى وانتحب وجاعت العجوز فأضربت نارا قريبا منه وجلست تصطلي .

ثم أقبلت على عين أهله فقالت له : تعز واصبر وانكر مصائب الناس فتأس بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى فى حفظ نفسك ، فقال لها عين أهله : لقد صدق القائل بان على الطليق ما لقي الأسير ، فقالت له العجوز : أيها الفتى ، إن حداثة السن قصرت بك عن إدراك كثير من الحقائق ، أفتسمع حديثاً لك فيه سلوة؟ قال : نعم فاتعمى على به .

فقالت العجوز : ذكروا أن تاجراً مكثراً كان له ابن ليس له غيره ، وكان شديد المحبة له والشغف به فاتحفه بعض معارفه بغزال فرخ صغير ، فعلق به قلب الغلام ولد التاجر فكان لا يفارقه ، وجعل أهل الغلام على ذلك الغزال حلياً نفيساً ، وارتبطوا له شاة ترضعه حتى اشتد الغزال وشدن نجم قرناه^(١) ، قال الغلام لأهله : ما هذا الذى فى رأس الغزال ؟ قالوا : قرناه ، فأعجبه سوادهما وبريقهما ، فقيل للغلام : إتهما سيكبران ويطولان حتى يكون صفتهما كيت وكيت ، فقال الغلام لأبيه : أحب أن أرى ظيباً له قرنان كبيران ، فأمر أبوه فصيد له ظبى ثنى السن^(٢) ، قد استكمل قوة ونموا ، فأعجب به الغلام وكرمه أهله وحلوه وأنسوه^(٣) فأنس ، وألف الغزال الظبى للمجانسة الطبيعية .

فقال الغزال للظبى : ما ظننت - قبل أن أراك - أن لى فى الأرض شكلاً ،

(١) أى قوى واستغنى عن أمه .

(٢) أى نبنت أسنان مقنمة فمه دلالة على نموه .

(٣) استأنسوه .

ثم لما رأيتك وقع في نفسي أن لي أشكالا سواك ، فقال له الظبي : نعم ، إن أشكالا لك كثيرة ، فقال له الغزال : أين هي ؟ فأخبره الظبي بتوحشها وانفرادها في قلاوات^(١) الأرض فرارا من الناس ، وحدثه عن مراتعها ومواردها وازدواجها وتناسلها ، فارتاح الغزال لما سمع من الظبي ، وتمنى أن يراها فيكون معها ، فقال له الظبي : هذه أمنية لا خير لك فيها ، وأنت نشأت في رفاهية العيش ، وأمنة لا تعرف غيرها ، ولو حصلت فيما تمنيت لتدمت .

وإنه كان يقال : ثلاثة من لم ينزلها منزلتها ويرع لها حقها أسرعت مفارقتها والتحول عن قربها ، وهي : الملوك ، والعلماء ، والنعم .

وكان يقال : الأمانى في الشدة ارتياح ، وفي الرخاء جماح^(٢) ، فلا ينبغي أن يأذن العاقل لنفسه من الأمانى إلا في المقدار الذي يؤنس الوحشة وينفس الكربة ، فإن استيلاء الأمانى على النفوس ؛ كتأمر السفلة الذين يعيدون الرؤوس أعجازا^(٣) والأعجاز رؤوسا ويسعون في قلب الأعيان وتغيير صورة الصواب ، فقال الغزال للظبي : لا بد لي من أشكالي ، فلما رأى الظبي أن الغزال غير منته وخاف عليه أن يقطع به قبل بلوغه ما تمناه ؛ لأنه غر لا يعرف التحرز من مكائد النفس لم يجد بدا من اتباعه والكون معه ليقضى حق حرمة ألفته إياه ، فرصدا حينما يمكن فيه الفرار وخرجا معا حتى لحقا بالصحراء . فلما عاينها الغزال فرح ومرح وذهب يعدو ولا يثنيه شيء ، حتى سقط في أخدود ضيق قد قطعه السيل فلبث فيه وانتظر أن يأتيه الظبي ليخلصه فلم يأتها فبقى هنالك .

وأما ولد التاجر ، فإنه أصبح وعدم الغزال والظبي وجزع لفقدتهما وأشفق أبوه عليه ، فاستدعى كل من يعانى الصيد بذلك البلد فعرفهم القصة وكلفهم طلب الظبي والغزال ، ووعد من وجدتهما وعدا مرغوبا فيه ، فانبثوا^(٤) في سهل الأرض وحزنهما^(٥) يطلبونهما ، وركب التاجر دابته ، وفرق أتباعه على أبواب

(١) القلاوات ، مفردتها : فلاة وهي المساحة الواسعة من الأرض القضاء .

(٢) انهزام وضعف .

(٣) الأعجاز ، مفردتها : عجز وهو مؤخرة الشيء ، والمراد : قلب الأمور رأسا على عقب

(٤) الانبثا : الانتشار والتفرق والمراد : جدوا في طلبهم والبحث عنهم .

(٥) الحزن : ما غلظ من الأرض وصعب .

المدينة ينتظرون من يأتي من الصيادين ، وانطلق هو وعبدان من عبده حتى أتوا الصحراء فرأى على بعد رجلا مكباً على شيء بين يديه فأسرع نحوه ، فإذا هو صياد قد أوثق ظليماً وهو يريد ذبحه ، فتأمله التاجر فإذا هو الظبي الذي يطلبه فتخلصه من يد الصياد وأمر عبده ففتشاه ، فوجد معه الحلي الذي كان على الظبي ، فسأله : كيف ظفر بالظبي وأين وجدته ؟ فقال : إنسى بيت فى الصحراء أتصيد فنصبت شركا وكمنت قريبا منه ، فلما أصبح جاء هذا الظبي ومعه غزال فمر الغزال يعدو ويمرح فى جهة غير جهة الشرك ، وجاء هذا الظبي حتى حصل فى الشرك فأخذته وقصدت به المدينة حياً لعلمى أنه إن رنى طولبت بما عليه من الزينة فرأيت أن أذبحه وأدخل به لحماً ، فهذا خبرى .

فقال له التاجر : لقد جنى عليك شحك الخيبة والحرمان ، فماذا عليك لو أطلقتها فذهب وحصلت أنت على حليه وزينته . ولقد صدق القائل : لا يدخل الشر مدخلا إلا أعقبه المحرمة ، ولا يدخل البخل مدخلا إلا أعقبه الحسرة ، ألا ترى أن من حمله البخل والشره على أكل اللقمة التى عافتها نفسه كان متعرضا للمحرمة بتهوع^(١) ما أكله والحسرة عليه عند مفارقتها .

ثم إن التاجر بعث بالظبي إلى ولده مع أحد عبديه وقال للصياد : ارجع معى فأرنى الجهة التى رأيت الغزال سعى نحوها ، فرجع به إلى تلك الجهة وجعل الصياد يفتش ويتشوف على المواضع المرتفعة ومشى التاجر على رسله^(٢) ، فسمع تربيب الغزال - وهو صوته - فصاح به التاجر ، فلما سمع الغزال صوته عرفه ، فصوت واتبع التاجر الصوت حتى قام عليه وإذا هو فى أخدود^(٣) أى شق فى الأرض - منتشبا فيه^(٤) ، فأخذه ونادى الصياد فوهب له دراهم وصرفه ، ورجع التاجر بالغزال إلى ولده وكملت مسرة الغلام ، وجعل الغزال يتجنب الظبي إذا رآه ولا يألفه كما كان ، وإذا حصل معه فى موضع نفر منه أشد النفار ، فتغصت مسرة الغلام لذلك وجهد أهله بكل حيلة أن يجمعوا بين الغزال والظبي على حال ألفة وسكون ، فلم يقدرُوا على ذلك فبينما الغزال

(١) تقيء من غير تكلف .

(٢) أى على مهلٍ ورفقٍ .

(٣) حفرة مستطيلة .

(٤) متعلقا .

يوما نائما فى بيت ، دخل عليه الطبي فعاتبه على نفاره منه وطول هجرته له ، فقال له الغزال : أنسيت غدرك بى أحوج ما أكون إلى عونك ؟ ، فقال له الطبي : إني لم أغدر ولم أخن ولكن عدم رسوخك فى علم التجربة أوقعك فى تهمة البرىء ، وإني لم أتأخر عن تخليصك مما حصلت فيه إلا مضطرا إلى التأخر عنك عاجزا عن المبادرة إليك ، وقص عليه قصته وأنه حصل فى شرك الصياد ، فعلم الغزال عذره وعاد إلى تألفه .

قال : فلما سمع عين أهله حديث العجوز ، وفهم ما أرادت به من نكر عجزها عن تخليصه أمسك عن خطابها .

قيل : فلما انتهى وزير سابور من حديثه إلى هذا الحد سكت ، فقال له المطران: أيها الحكيم الراهب : ما هذا السكوت ، لعلك تريد أن تؤخر إخبارى بما كان من عاقبة عين أهله ، وما لقي من الذنب ، وما صنعتته معه العجوز .

فقال له الوزير : إني لعازم على ذلك لفتور أجده فى أعضائى ، فقال له المطران : لا تفعل فإن ذلك يسوعنى ويشق على ، فأحمل لى على نفسك الليلة أيها الحكيم ، فإنى راغب فى تأنيبك ، معجب بأحاديثك ، فقال الوزير : أفعل ذلك طلبا لمرضاتك ، ولو علمت أيها المطران ما انخرت لك من عجائب الأخبار وغرائب الأسمار لعجبت من ذلك أشد العجب ، ثم اندفع يحدثه ، فقال : إن عين أهله لما سمع حديث العجوز وفهم ما أرادت أمسك عنها ويات ليلته تلك بأسوأ حال ، ولما أصبح دخل عليه الذنب فنال منه ، وتعتعه وعنفه وتهدده بالقتل وزاده قيذا إلى قيده ، وعرفه أن لا ناصر له عليه ولا مخلص له من يده وخرج عنه ؛ فجعل يعلل نفسه نهاره ويمنيها الفرج ، فلما أقبل الليل استوحش واحتوشته الأفكار المريضة ، وانتظر أن تجلس إليه العجوز أو تحدثه فلم تفعل ، وجعلت العجوز تكثر الدخول إلى البيت الذى فيه عين أهله ولا تستقر فيه ؛ فساء ظن عين أهله وأيقن بالهلكة وما شك أن الذنب يقتله تلك الليلة ، فأقبل على البكاء حتى ذهب صدر من الليل ، ثم قال للعجوز : ما لك لم تؤنسنى هذه الليلة بحديثك ولا جلست إلى ؟ ، فجلست إليه وقالت له : أما كان لك فى رؤيتى قطعاء جدعاء مشوهة عوراء سيئة الحال ما يحملك على التأسى والتسلى وحمد الله وشكره على سلامة نفسك ومعافاةك من بلاء هو أعظم من بلاك حتى قلت : هان على الطليق ما لقي الأسير؟ ، ولو اعتبرت باطن حالى بما ظهر لك منها

لعلت أن أسرى أشد من أسرك فاستمع إلى أحدثك حديثي .

اعلم أيها الفتى أني كنت زوجة لبعض الفرسان ، وكان بي محسنا وبي رفيقا ولي محبا ، فكنت معه في أرغد عيش ، وأهناه فلبثت بذلك مدة طويلة وولدت له أولادا ذكورا وإناثا ، فكبروا في رفاهية ونعمة ؛ فغضب الملك على زوجي لأمر كان منه فقتله وقتل ذكور أولادي ، وباعني أنا وبناتي مفترقات ، فاشتراني هذا الفارس الذي عدا عليك واحتملني إلى هذه القرية ، وأساء إلى وكلفني من العمل ما لا طاقة لي به ، وأكثر معاقبتي على غير ذنب لما طبع عليه من القسوة والفظاظة⁽¹⁾ ، فسألته مراراً أن يرفق بي ، واستعنت عليه بإخوانه ومن يكرم عليه لكي يخفف عني أو يبيعي ، فلم يزد السؤال إلا قسوة على وإضراراً بي ، فلبثت بذلك سبع سنين ، ثم فررت منه فأتبعني فأدركني فجدع أنفي ، ثم عاود قسوته على وإضراره بي وعاودت مسألته والاستشفاع إليه وهو مقيم على سوء رأيه في ، فمكثت بذلك سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فظفر بي فقفا عيني ، ثم عاود عني ، فمكثت سبع سنين أخرى ، ثم فررت منه فأدركني فقطع يدي ، وقال لي : إنما بقي لي من أعضائك التي أنتفع بها عينك ويدك ، فإن فررت بعد هذا قطعت رجلك معا وأبقينك ، أنتفع بعينك في الحراسة وبيدك في العمل ، وأقسم على ذلك بغليظ الأيمان وعاود عني ومضرتي ، وقد عزمتم على أن أخلصك الليلة وأقتل نفسي بيدي طلباً للراحة مما أنا فيه ، ولهذا رأيتي أكثر الدخول إليك والخروج عنك ، وإنما ذلك لحيرتي وجزعي من الموت وقد طابت نفسي على الموت ، ثم إنها فتحت قيود عين أهله ، وقطعت وثاقه وتناولت سكيناً ، فقال لها عين أهله : ما تصنعين به ؟ قالت أقتل نفسي ، فقال لها عين أهله : لئن تركتك تقتلين نفسك فقد اشتركت في دمك ، وانتزع السكين من يدها وقال لها : اذهبي معي لكي تنجو معا أو نعطب معا ، فقالت له : إن كبير سني وضعف حالي ليمنعاني من اتباعك والهرب معك ، فجزاها عين أهله خيراً بما صنعت واتخذها أما يسمع لها ويطيع ، فهذا ما بلغني من ذلك ، فقال عين أهله : إن الليل متسع والموضع الذي نأمن فيه إذا وصلنا إليه قريب وبي قوة على حملك ، فقالت العجوز : أما إذا عزمتم

(1) الفظ ، جمعها أفظاظ : وهو الغليظ السيء الخلق الخشن الكلام .

على هذا فإننى لا أحوجك إلى حملى مادامت بى مسكة^(١)، وخرجا معا ، فلم ينقض الليل حتى بلغا إلى حيث أمنا .

فقال المطران : ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم ، ولقد وددت أن لا أفارقك أبدا وإن سفرى هذا يطول لتطول متعتى بك ويعظم حظى من أنسك ، ولقد استعذبت مفارقة الأهل والوطن لقربك ، ونهض كل واحد منهما إلى مضجعه .

وبات سابور يتصفح حديث وزيره ويتأمل أمثاله ، ففهم أن الغزال مثل لسابور وأن الظبى مثل للوزير ، وأن خروج الظبى مع الغزال إلى الصحراء وحصول الغزال على الأخدود مثل لصحبة سابور وزيره حتى حصل سابور فى حبس قيصر ، وأن نفار الغزال عن الظبى مثل لسابور .

وظن سابور بوزيره لتأخره عن استقاذه ، وعرف أن الوزير قد عزم على تخليصه والخروج به إلى المدينة ليلاً ، وأن المدينة قريبة منه وأنه يحمله إن عجز عن المشى ، فأيقن سابور بقرب الفرج .

ولما كانت الليلة القابلة تلتف وزير سابور حتى دخل الخيمة التى يطبخ فيها طعام المطران والموكلين بحفظ سابور على حال خلوة ، فألقى فى جميع الأطعمة مرقداً^(٢) قوى الفعل ، ولما حضر طعام المطران انفرد الوزير بأكل زاده على ما جرت به عادته ، فلم يكن إلا ساعة حتى استحوذ المرقد على جميعهم فاجدلوا^(٣) فى مواضعهم صرعى على مراصدهم ومضاجعهم ، وبادر الوزير ففتح باب الصورة عن سابور ، واستخرجه وأزال الجامعة من عنقه ويديه ، وتلطف حتى أخرجه من عسكر قيصر ، وقصد به جندى سابور ، وهى مدينة ملكه ، فانتهاها معا إلى سورها ، فصرخ بهم الموكلون بحراسة السور فتقدم الوزير إليهم وأمرهم بخفض أصواتهم وعرفهم بنفسه ، وأعلمهم بسلامة ملكهم ، فابتدروا وأدخلوهما المدينة فقويت نفوس أهلها ، وأمرهم سابور بالاجتماع وفرق فيهم السلاح ، وعهد إليهم أن يأخذوا أهبتهم فإذا ضرب الروم

(١) ما يملك الأبدان من الغذاء والشراب .

(٢) دواء يرقد شاربه كالأفيون أى مخدر .

(٣) أى وقعوا على الأرض .

نواقيسهم^(١) الضرب الأول؛ خرجوا من المدينة واقتربوا من عسكر الروم وقاموا على تعبئة وتأهب ، حتى إذا ضربت النواقيس الضرب الثاني حملوا بأجمعهم كل فرقة على من يليها فامتلوا أمرهم ، وانتخبوا لسابور كتيبة عظيمة فيها أشجع أساورته وقام معهم فيما يلي الجهة التي فيها أخبية قيصر .

فلما ضربت النواقيس المرة الثانية حملوا من كل جهة ، وقصد سابور أخبية^(٢) قيصر ولم يكن الروم متأهبين ؛ لعلمهم بضعف الفرس عن مقاومتهم وأنهم قد بنوا أبواب مدينتهم ، فما شعروا حتى دهمتهم الفرس وأخذ سابور قيصر أسيراً ، وغنم جميع عسكره واحتوى على خزائنه ولم ينج من جنوده إلا الشريد^(٣) .

وعاد سابور إلى قرار ملكه ، فقسم الغنائم بين أهل عسكره ، وأفاض الصلوات على جميع من في مدينته بقدر أحوالهم ، وأحسن إلى حفظة ملكه وشرفهم وفوض جميع أمره إلى وزيره الذي تخلصه ، ثم أحضر قيصر فأكرمه ولاطفه وقال له : إني مبق عليك كما أبقيتني ، وغير مجازيك بتضييق محبسي ولكني آخذتك بإصلاح جميع ما أفسدت من جميع ممالكى ، فتنبى ما هدمته ، وتغرس مكان كل نخلة قطعتها من بلادى زيتونة ، وتطلق كل من فى مملكتك من أسارى الفرس ، فضمن له قيصر ذلك كله ووفى له به ، ولما انتهى فى الإصلاح إلى بناء ما انتلم^(٤) من سور مدينة جندى سابور . قال سابور لقيصر : إنما بنيت من تراب بلادك ، فأمر قيصر رعيته من الروم بحمل التراب من بلادهم إلى جندى سابور ، فرقع به ما انتلم من سورها ، ولما تم لسابور ما أراد من ذلك كله أحسن إليه وأطلقه إلى دار مملكته بعد أن قال له : خذ أهبتك واستعد عندك ، فإنى غاز أرضك عما قريب .

(١) النواقيس ، مفرد ما ناقوس : وهو الجرس والصوت الذى يضرب فى الحرب

(٢) الأخبية : مفرد خباء وهو كساء من الأبنية يكون من وبر وصوف وشعر والمراد مكان تجمع الجنود .

(٣) الذى فارق جمعهم وشملهم .

(٤) ما هدم وكسر . والمراد أنه أصلح ما فى السور من خلل .

قال محمد عفا الله عنه : قد بلغت بهذه السلوانة الغاية التي يحتملها هذا الكتاب، فالحمد لله على ما يسر من ذلك .

السلوانة الثالثة

سلوانة الصبر

وهو ثمرة التأسى ، قال الله ربنا تقديس اسمه مخاطباً صفيه المكين لديه ،
ونبيه العزيز عليه ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي
ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] ، وهذا لما تألب المبتلون عليه ، وقصدوا
بالمكر والمكروه إليه ، كما أخبره الله سبحانه بقوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

وكان رؤساء قريش اجتمعوا في دار الندوة^(١) ليشاوروا في أمر
النبي ﷺ ، وأتاهم إبليس في صفة شيخ أعرابي فأرادوا إخراجَه ، فقال لهم :
إني من أهل نجد^(٢) ولا عين عليكم مني ، وبلغني ما اجتمعتم له ، ولعلكم لا
تعدمون من محضري خيرا ، فأخذوا في تشاورهم .

فقال عتبة : أرى أن تخرجوه من بين أظهركم ، فإن ظفر كان ظفره حظا ،
وإن قتل كنتم قد كفيتم أمر دمه .

فقال إبليس : ما هذا رأي ، أما سمعتم حلوة منطقه وأخذه بالقلوب؟ ، فلا تأمنوا
أن يقع في حى من أحياء العرب فيفسد أهواءهم ويسير بهم إليكم حتى يفرق جماعتكم .
فقال آخر منهم : أرى أن يوثق ويحبس حتى يأتيه أجله وهو في حبسه .

فقال إبليس : ليس هذا برأى ، أما علمتم أن له أهل بيت وأتباعا لا يرضون
منكم بهذا فيقع الحرب بينكم ، ويهن أمركم ، ثم قد تكون الدائرة عليكم ؟
فقال أبو جهل^(٣) : نرى أن نأخذ من كل قبيلة من قبائل قريش شأبا جلدأ ،

(١) دار الندوة : بمكة أحدثها قصي بن كلاب بن مرة لما تملك مكة ، وهي دار كانوا
يجتمعون فيها للمشاورة ، وجعلها بعد وفاته لابنه عبد الدار بن قصي . ولفظه مأخوذ من
لفظ الندى والنادى والمنتدة ، وهو مجلس القوم الذين يندون حوله أى يذهبون قريبا منه
ثم يرجعون . البداية والنهاية (١٧٩/١) معجم البلدان (٤٥٧٩) .

(٢) نجد : هو اسم للأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام ،
وحد نجد أسافل الحجاز كما تدور الجبال معها إلى جبال المدينة . معجم البلدان
(١١٩٢٤) .

(٣) أبو جهل ، هو أبو الحكم عمرو بن هشام ، كان زعيم بنى مخزوم من قريش ، وكان من أكبر

ويعطى كل واحد منهم سيفاً ويأتونه في مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر أهله أن يطلبوا بدمه جميع القبائل إذا افترق دمه فيها .

فقال إبليس : لقد أصاب الرأي ، فنفركوا على رأى أبى جهل فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله عليه السلام يعرفه مكرهم ويأمره بالهجرة إلى طيبة^(١) .

وجاء الذين تخيروهم من القبائل للفتك برسول الله ﷺ إلى منزله من أول الليل ، فأمر النبي ﷺ علياً^(٢) أن يلبس برده الأخضر وينام على فراشه ، وأعلمه أن لا يصل إليه من قريش مكروه ، فالتحف على برده النبي ﷺ ونام على فراشه ، وخرج النبي ﷺ من بيته والقوم على بابيه ، فقرأ أولئك سورة يس والقرآن الحكيم ، وأخذ كفاً من تراب وجعل يذريه على رؤس القوم وهم لا يرونه .

وانصرف النبي ﷺ متوجهاً نحو الغار ، وجعل المشركون ينظرون إلى عليّ في مضجع رسول الله ﷺ وعليه برده الأخضر فيقولون هذا محمد نائماً ولا يطيقون الدخول حتى أصبحوا ، وقام عليّ ﷺ ، فنظروا إليه فأتوه وقالوا له : أين محمد ؟ فقال : لا أدرى أمرتموه بالخروج فخرج ، فحبسوه في المسجد ساعة ثم تركوه رضى الله عنه^(٣) .

خبر نبوي في الصبر

مما روينا ، أن النبي ﷺ قال : «الْعِلْمُ خَيْرٌ الْمُؤْمِنِ ، وَالْحِلْمُ وَزِيرُهُ ، وَالْعَقْلُ دَلِيلُهُ ، وَالْعَمَلُ قَائِدُهُ ، وَالرَّفْقُ وَالْيَدَةُ ، وَالْبِرُّ أَخُوهُ ، وَالصَّبْرُ أَمِيرُهُ

أعداء النبي ﷺ ورسالته ، وقتل في معركة بدر سنة (٥٢) البداية والنهاية (٣٠/٣) .

(١) طيبة : اسم لمدينة رسول الله ﷺ . معجم البلدان (٨٠٢٨) .

(٢) علي بن أبي طالب : أبو الحسن الهاشمي ، أمير المؤمنين ، ابن عم رسول الله ﷺ .

وعن ابن عباس قال : لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أول عربي وعجمي صلى مع رسول الله ﷺ ، وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف ، وهو الذي صبر معه حين فرّ عنه غيره ، وهو الذي غسله وأدخله قبره . وكان زوج بنت رسول الله ﷺ فاطمة رضى الله عنها . ومناقبه وفضائله ﷺ تطول . الإصابة (٥٧٠٤) .

(٣) وردت القصة كاملة في السيرة النبوية لابن هشام (٩٢/٢) .

جُنُودِهِ^(١) . فناهيك بشرف خصلة تتأمر على هذه الخصال ، وليس المراد تفضيل الصبر على العقل والعلم وما ذكر من الخصال معهما ، ولكن المراد : أن بالصبر يكون الثبات على هذه الخصال لمن اتصف بها ؛ لأن معنى الصبر الثبات والحبس والإمساك ، فمن اتصف بشيء من هذه الخصال ولم يتصف بالصبر عليه والملازمة له كان عند مزايته كمن لم يتصف به ، فالصبر لهذه الخصال الشريفة ضابط ضبط الأمير جنوده عن مزايلة مراكزها والإخلال بما نصب لها من دفاع وانتفاع .

منثور ومنظوم من الحكم في الصبر

روى أن علياً عليه السلام قال : الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُورُ^(٢) .

وقيل : إن مما كتبت في الصحيفة الصفراء المعلقة في أعظم هياكل الفرس : كما أن الحديد يعشق المغناطيس ، فكذلك الظفر يعشق الصبر ، فاصبر تظفر . اعلم رحمك الله : أن ظل الصبر ظليل ، ومضله ذليل ، وأن الصبر درج يفضى بمن عرج إلى القرج ، وأن أقل فوائد الصبر على البلية أن الصبر عليها ينغص لذة عدوه المتشفى الشامت به .

والصبر صبران : صبر العامة ، وهو عمل أرواح ، وقد أحكم هذا المعنى حبيب ابن أوس^(٣) فقال :

ولباسُ مترِّده الصَّبْرُ مُنْزَعٌ بِهِ	في الحايثُ الجَلَّ أَدْرَاعُ اللَّامِي
والصَّبْرُ بِالْأَرْوَاحِ يُعَلِّمُ	صَبْرُ الْمَلُوكِ وَأَيُّسُنْ
فَصَلِّهِ	بِالْأَجْسَامِ

قوله : ادراع اللامي : أي الدرع ، والدرع : لامة ، وجمعها لام .

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٦٦٣) (٤٣٥٥٧) وعزاه للبيهقي في شعب الإيمان عن الحسن مرسلأ .

(٢) أي جواد لا يتعثر ولا يتكسح .

(٣) حبيب بن أوس : هو ابن الحارث بن قيس الطائي شاعر العصر أبو تمام ، من حوران ، من قرية جاسم ، أسلم وكان نصرانياً مدح الخلفاء والكبراء وشعره في النزوة ، وكان أسمر طوالاً ، فصيحاً ، عذب العبارة مع تمعة قليلة . ولد في أيام الرشيد ، وقد كان الباحثري يرفع من أبي تمام . ويقدمه على نفسه ، وديوانه كبير سائر . مات سنة (٢٣٢هـ) وله كتاب (مخول الشعراء) . وقيل : كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب . سير أعلام النبلاء (١٨٤٧) والبداية والنهاية (١٥٣/٦) .

وقال حبيب أيضا فأحسن :

وإذا رأيت أسي امرئ أو صبره يوما فقد أبصرت صورة رأيه

وقال نهشل بن جزء :

ويوم كأن المصنطين بحسره
صبرتها لها حتى تفوح
وإنما

قوله تفوح : أى تخبو .

وقلت فى ذلك :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه
ومن قل مما ينقيه اصطباره
ويُعرفُ عند الصبر فيما يصيبه
فقد قل مما يرتجبه نصيبه

وقال آخر :

الصبر أولى بوقار الفتى
من لزيم الصبر على حاله
من قلق يهتك ستر الوقار
كان على أيامه بالخيار

وقال عمرو ذو الكلب :

ومعد كربة قد كنت منسه
صبرتها لها وكنت أذا حفاظ
فهدأ والمتية من
ورأى
مكان الإصتغين من القبال^(١)
إذا خام اللسام عن النزال^(٢)
ستطرقنى بها إحدى الليالى

قال محمد عفا الله عنه : هذا أنموذج من القول فى الصبر على الجملة ، وهو يتنوع أنواعا ، والنوع اللائق بكتابنا هذا منها : هو صبر الملوك ، وصبر الملوك عبارة عن ثلاث قوى : القوة الأولى : قوة الحطم ، وثمرتها العفو ، القوة الثانية : الكلاءة^(٣) والحفظ ، وثمرتها عمادة المملكة ، والقوة الثالثة : قوة الشجاعة وثمرتها فى الملوك الثبات ، وأما ثمرتها فى حماة المملكة من المقاتل ،

(١) القبال : من الفعل زامها .

(٢) خام : جبن ونكص .

(٣) الكلاءة : الاحتراس والحفظ .

الإقدام فى المعارك ، ولا يراد من الملك الإقدام فى المكافحة ، فإن ذلك من الملوك تهور وطيش وتغريير، وإنما شجاعة الملك ثباته حتى يكون قطباً للمحاربين ، ومعقلاً للمنهزمين ، وهذا مادام بحضرته من يثق نذبه عنه ودفاعه دونه وحمايته له .

فأعد ذكرى الفرس : أن فيلاً اغتلم^(١) ، أى هام شبقاً^(٢) ، فدخل قصر كسرى أنوشروان^(٣) ، والفيل إذا اغتلم أنكر سواسه ولم يثبت له شىء إلا أتى عليه ، قالوا : وإن ذلك الفيل قصد مجلساً كان فيه كسرى ومعه جماعة من كفاة أصحابه؛ فلما رأى الذين مع كسرى أن الفيل قد قصدهم فروا من المجلس وثبت كسرى على سريريه وثبت معه رجل من أساورته كان مكيناً عنده يثق بثباته ، فقام ذلك الأسوار بين يدى سرير كسرى وبيده طبرزين وقصده الفيل فثبت له حتى غشيه فضربه بالطبرزين^(٤) على فنتسطه^(٥) ، فكر الفيل راجعاً من حيث جاء ، وقد نالت منه الضربة منالاً شديداً ، وكسرى فى هذا كله لم يتخلخل عن مجلسه ولا تغيرت هيئته ولا فارقت أبعته .

فهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملك ، فإذا لم يكن بحضرة الملك من يثق بدفعه عنه ، حسن حينئذ منه أن يذب عن نفسه ، إما بالإقدام على العدو إن غلب على ظنه الامتناع منهم بالإقدام عليهم ، أو بانتهزامه إن أتاه مالا قبل له به ، وأشفق من عطب رعيته بهلكه .

كما حكى أن موسى الهادى^(٦) كان يوماً فى بستانٍ ومعه أهل بيته وبطانتته وهو راكب على حمار وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلاً من الخوارج جىء به أسيراً ، وكان الهادى حريصاً على الظفر به فأمر بإخاله

(١) ثار فى شهوة .

(٢) الشبق : شدة الرغبة والشهوة .

(٣) كسرى أنوشروان : ملك من أسرة الساسانيين ، حكم فارس وله العديد من الإصلاحات ،

اشتهر بعد له وبنرائه وفخامة قصوره حتى ضربت به العرب المثل فى الثراء ، له العديد

من الانتصارات على الروم واستولى على اليمن . البداية والنهاية (١٦٧/٢) .

(٤) الطبرزين : آلة شبيهة بالقأس .

(٥) أى على أنفه (خرطومه) .

(٦) موسى الهادى : الخليفة العباسى ابن المهدي وهو الخليفة العباسى الرابع ، وهو أخو

الخليفة الرشيد . توفى عام (١٧٠هـ) . البداية والنهاية (١٥٣/١٠) .

بين رجلين قد أمسكا بيديه ، فلما رأى الخارجى الهادى جذب يديه من الرجلين اللذين كانا يمسكانه واختلط سيف^(١) أحدهما ووثب نحو الهادى ، ولما رأى ذلك من كان حول الهادى من أهله وخاصته ؛ فروا جميعا وبقي الهادى وحده ، فثبت على حمارة بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف قال الهادى: اضرب عنقه يا غلام ، فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ووثب الهادى عن سرجه فإذا هو على الخارجى ، وسقط الخارجى تحته فقبض الهادى على يده ، وانتزع منه السيف فنبحه به ، ثم عاد إلى ظهر حمارة من فوره ، وتراجع إليه خاصته وأهله يتسللون وقد ملئوا منه رعباً وحياءً ، فما خاطبهم فى ذلك بحرف ، ولم يكن بعد ذلك يفارقه سيف ولا يركب إلا الخيل .

وقد جلا عليك هذا الخبر ما أيد الله به موسى الهادى من ثبات الجأش^(٢) ، وإصابة الرأى ، وشدة الكيد ، وشجاعة القلب ، وقوة البدن رحمة الله عليه .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : وصف لكسرى أنوشروان أرض من التخوم^(٣) الهندية تتاخم إقليم بابل فذكرت له بحسن المنظر وطيب الهواء والماء ، وكثرة الإتاوة ، وزكاء الغلات ، وكثرة العمائر ، وحصانة المعامل . ووصف له أهل تلك الأرض بعظم الجسوم^(٤) وبلادة^(٥) الفهوم وشجاعة القلوب ، وقوة الأبدان ، والصبر على العمارة ولزوم الطاعة ولين المقادة ، فشرهت نفس كسرى إلى تملك تلك الأرض والتكثُر بأهلها .

وكان يقال : الشره أعرق الحصائل^(٦) فى اللؤم ، فالحرص أبوه الذى يولده ، والبغي ابنه الذى يلده ، والطمع شقيقه والذل رفيقه .

وكان يقال : من شره وقع فيما كره .

(١) أى استل السيف .

(٢) أى ثبات النفس .

(٣) التخوم ، مفردا تخم : وهى الحدود .

(٤) الجسوم ، مفردا الجسم : وهى الأبدان .

(٥) أى عجز الرأى وضعف الهمة .

(٦) الحصائل ، مفردا حصيلة : وهى ما خُصِّل وجمع .

وكان يقال : الشره شدة ، ينتجها طبع ويهيجها طمع .

قيل : فلما طمحت نفس أتوشروان إلى تملك تلك الأرض ، سأل عن ملكها ، فأخبر بأنه عظيم من أراكنة الهند^(١) ، وأنه شاب منقاد لشهوته ، مقبل على لذاته ، إلا أنه سالك صراطاً من العدل لايجور ، ومالك منهلاً من البذل لا يغور ، إلى رافة برعيته قد أشربت قلوبهم وده ، وركنت آمالهم إلى ما عنده .

فندب له كسرى من ثقات أصحابه ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وتفقّه في سياساتهم وكان ذا دهاء وفكر ، وحزامة ومكر ، فأمره بتأمل مسالك تلك الأرض والبحث عن ثغورها ومعاقلها ، وتطلب عورتها وتفقّد أخلاق ملكها وأهلها ، وكتب معه كتاباً إلى ذلك الأركان يدعو فيه إلى الدخول في طاعته ، ويحذره التعرض لصولته بمخالفته .

فانطلق ذلك الرسول حتى قدم على الأركان ، فأحسن منزله وبالغ في براه وتكرمه ، وعمى عليه الأخبار وبالغ في قبضه عن التصرف وفي قبض الناس عن لقائه واحتجب عنه ، ولم يستدع الكتاب منه ، وندب لاختباره وعلم ما قصد له رجلاً من دهاء أصحابه ، فأمره بالتجسس على أنبائه والتلطف في مداخلته ومخائلاته^(٢) . فانطلق ذلك الجاسوس فاكترى حانوتاً^(٣) بإزاء دار الرسول ، وملاه فخاراً وجلس فيه ليبيح ذلك الفخار .

وكان للرسول غلام يخف في حوائجه ويتصرف في مآربه ، فجعل الجاسوس إذا رأى ذلك الغلام هش له وأكرمه وسأله عما له من حاجة ، إلى أن أنس به الغلام فكان يجلس إليه ويستعين به على أمره ، فلبث بذلك مدة لا يسأله عن شيء من أمر سيده ، فلما تأكد أنس الغلام به قال له يوماً : من تكون ؟ ومن لك في هذه الدار التي تكفلها ؟ .

فقال له الغلام : صحبتني منذ كذا وكذا ولا تعرفني ؟ ، فقال الجاسوس :

وما علمي ؟ .

(١) أي ملوك الهند .

(٢) أي مخادعته .

(٣) أي استأجر محلاً بجانبه .

قال له : أنا غلام رسول كسرى وسيدى فى هذه الدار ، فقال الجاسوس :
ومن كسرى ومن رسوله ؟ .

فقال الغلام : كسرى ملك بابل أرسل سيدى إلى ملك أرضكم ، فقال
الجاسوس : قد عرفت حين ذكرت بابل لأنى كنت فى صباى أجييرا لرجل من
أهل بابل ، ثم أمسك عن الغلام أياما لا يسأله شيئا .
وكان يقال : التتقىير^(١) تتغير .

وقيل : التتقيب يريب الأريب^(٢) .

وقيل : من تسرع إلى الأمانة فلا لوم على من اتهمه بالإضاعة ، ومن
تسرع إلى المشاركة فى السر فلا لوم على من اتهمه بالإذاعة ، ومن تتصح قبل
أن يستصح فلا لوم على من اتهمه بالخداع ، ومن عنى بكشف ما ستر عنه فلا
لوم على من اتهمه بخبث الطباع .

قيل : إن الجاسوس قال للغلام يوما : إذا خرج مولاك فأرنى إياه .

فقال الغلام : إن مولاي لا ينصرف ، قال الجاسوس : أمرىض هو ؟ .

قال الغلام : لا ، ولكن ملككم حظر عليه الخروج وعلى الناس الدخول إليه ،
فبكى الجاسوس ، فقال له الغلام : ما الذى أبكاك ؟ فقال الجاسوس :
أبكتنى الرحمة لمولاك مما هو فيه ، لأنى ابتليت بمثله ؛ وذلك أنى حبست مرة
فى دين كان على ومنعت امرأتى من الدخول على ، فولا أن الله تعالى من على
برجل كان محبوسا معى فكان يسلىنى بحديثه وأنسه^(٣) لهلكت غما ؛ فهل تحدث
مولاك وتسليه ؟

فقال الغلام : إنى لا أعرف هذا ولا أدري خيرا أطربه به ، فقال الجاسوس
له: أفلا أدلك على ذلك ؟ فقال الغلام : بلى ، فأحسن إلى بذلك .

فقال له الجاسوس : إذا خرجت من عند مولاك فطف فى المدينة وتأمل ما

(١) الجدل والنزاع .

(٢) الماهر الذكى .

(٣) أى استأنس بحديثه وكلامه .

تراه فيها ، فإذا رأيت جماعة يتحدثون فأجلس إليهم واستمع بما يفيضون فيه ، فإذا رجعت إلى سيدك وخلوت معه فقل : رأيت اليوم كذا وكذا وسمعت من يقول كذا وكذا ؛ فإن في هذه تسلية له ، وأنسا من وحشته ويوشك إذا فعلت ذلك أن تحظى بما عنده . ففعل ما أمره به الجاسوس فقال له سيده : من ذلك على فعل هذا ؟ فقال الغلام : أنا فطنت له ففعلته ، فقال له سيده : كلا ليس هذا في قوى عقلك ، فأخبرني بمن ذلك عليه .

فقال الغلام : دنى عليه جار لك يبيع الفخار ، ما رأيت أجهل ولا أبله منه ، فقال له سيده : من الذى ذلك على بلهه^(١) وجهله ؟ فقال الغلام : إنه صحبني أكثر من شهر ، وهو لا يعرف من أنا ولا من سيدى ، ونكرت له ملك كسرى فإذا هو لا يعرفه ، فلما سمع الرسول ذلك استراب منه وحمد أنه متجسس عليه، لما رأى أنه قد أفرط في تجاهله .

وكان يقال : من أفرط فهو كمن فرط ، ومن احتقل في غلوه استقل^(٢) عن علوه .

وكان يقال : ما دل على الأحوال كالأقوال ، ولا هتك قناع العقول كسماع المقول .

وكان يقال : من لم تعرفك غائبا أنناه لم تعرفك شاهدا عيناه .

قيل : فلما سمع الرسول مقالة عبده أمره أن يأتيه به ، ففعل ، ولما رآه الرسول حقق ما كان ظنه به من كونه جاسوساً عليه ، فأكرمه وقربه وتظاهر له ببغاوة وجهل لا مزيد عليها ، وسأله أن يواصل زيارته ، فلبث الجاسوس متفقداً حال الرسول في ليله ونهاره مدة متراخية ، ولما ظن ذلك الجاسوس أنه قد حصل ما أراد علمه من أمر رسول كسرى ، ذهب إلى الملك فأخبره أن ذلك الرسول قدم عبي^(٣) ، لا نكاه له ولا غناء عنده أكثر من أنه نو نجدة وفروسية ونفس أبية ، فوثق الملك بقوله وتخلل الرسول بالصورة التي مثله بها الجاسوس عنده

(١) ضعف عقله وعجز رأيه .

(٢) أى سقط وهبط .

(٣) أى ذو حماقة وغباء .

وكان يقال : لا يكن سمعك لأول مخبر ولا ثقك لأول مجلس .
وكان يقال : إذا كان الخبر يدخله الصدق والكذب فالقضاء له بأحدهما قبل
الامتحان جور .

وكان يقال : إنما يقضى بصدق الخبر عصمة المخبر لا صدقه ، وشرح
هذا: أن المخبر الصادق - إذا لم يكن معصوما فهو - عرضة للتلبيس وفرصة
للتكليس ، وكون المخبر ثقة صدوقا إنما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله ولا
يفيد عصمة إدراكه ، فقد ينظر الصادق المغفل إلى الشمس فيخبر بأنها غير
سائرة ، وينظر إلى القمر ودونه مقطعات السحاب فيخبر بأنه أدرك سرعة
سيره، وينظر من سفينة جارية إلى البر فيزعم أن البر يجرى ، وينظر إلى
أخبار الشعوذى^(١) فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هي عليه ، ويسمع كلام البيغاء
المحجوبة عن بصره فيخبر عن إنسان ، فلم يدخل الخلال من جهة تحريفه لكن
من جهة إدراكه.

قيل : فلما وثق الأركن بمقالة جاسوسه أحضر رسول كسرى ، فأكرمه
وخطبه بكل قول حسن ، وأخذ منه الكتاب ، وخلق عليه ، وأجزل صلته ، ورده
إلى منزله مكرماً مبروراً ، وأباح له التصرف ، وأذن لمن أراد قصده فى
زيارته، وتابع إلحافه وتكرمته ، ولبث بذلك عاماً ، ثم استحضره وسلم إليه
جواب كتابه وأعطاه هدية إلى كسرى يقال : إن منها سيفاً طوله خمسة أشبار ،
ولونه كلون النحاس الأحمر ، يعمل فى الحديد كما يعمل غيره فى الرصاص ،
وصفحة من الياقوت الأزرق تسع مناً^(٢) من الطعام وكأساً من الزمرد البحرى
يسع رطلا من الشراب ، وألف درة فريدة ، وقنديلاً من المها^(٣) فيه ياقوتة
حمراء كبيضة الحمام إذا علق فى بيت فيه مصباح ليلاً ألقى شعاع الياقوتة على
الألوان القابلة للحمرة فلا يشك فى حمرتها ، وطيباً كثيراً ، ودرعاً ودرقاً^(٤) ،

(١) أى الدجال المشعوذ .

(٢) كيل أو ميزان وهو شرعاً ١٨٠ مثقالاً وعرفاً ٢٨٠ مثقالاً .

(٣) أى البللور .

(٤) الدرقة ، مفردها الدرقة : وهى الترس من جلود ليس فيه خشب .

وغير ذلك ، وخص الرسول بخباء^(١) ونخائر نفيسة ، وصرفه إلى مرسله .
فلما قدم الرسول على كسرى سأله عما ندبه لتعرفه ، فأخبره بطيب تلك
الأرض ، وفضائل خصائصها ، وشرف مزاياها وحصانة ثغورها ، وأنه لم
يجد لها عورة تؤتى منها إلا غرارة^(٢) سكانها ، وأن عقولهم متهيئة لقبول الخدع
، محجوبة عن النظر في العواقب ، وأن هذا هو موجب حسن طاعتهم لمن أفوا
طاعته ، فلو ندب إليهم رجال يحسنون نصب الدعوات إلى الدول لاستمالوهم
وصرفوا طاعتهم عن ملكهم ، فإذا انصرفت طاعتهم لم تقم لملكهم بعد ذلك
قائمة ، لأنهم أعضاده الذين يصلون بهم ، فهم في الرخاء ثمار مجتناة وفي البلاء
سيوف منتضاة^(٣) .

فنظر كسرى فيما كتب إليه به الأركان ، فوجده قد خاطبه بالملاطفة ،
واعترف بفضله وتملقه ، ورغب إليه في المواعدة والمؤاخاة ، فاستشار
أنوشروان وزاره في أمره وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمسالمته ، فاختلفوا
عليه ، فأجمع على أن يرد هديته إليه ففعل ، ثم إنه ندب لإستقصاد رعيته رجالا
يحسنون نصب الدعوات وقلب الدول ، وأمدهم بالأموال ، وأزاح عنهم وبين
لهم مثالا يحذون عليه ، فنفروا لما أمرهم به حتى انتهوا إلى مملكة ذلك الأركان
، ففترقوا فيها وعمل كل واحد قوته فيما انتدب له .

فلما أتى عليهم عامان أحكموا ما أرادوا من ذلك في دار مملكة الأركان وفي
غيرها من مدنه وحصونه ورسائيقه^(٤) ، وكتبوا بذلك إلى كسرى ، فحرك إليهم
المرزبان^(٥) المتولى ربع المملكة المقابل لتلك الجهة الهندية ، وذلك أن إقليم بابل
كان مصروفاً إلى أربع مرابزة ، لكل مرزبان منهم ربع منه ، ومع كل مرزبان
منهم خمسون ألف مقاتل .

(١) ما يعمل من وبر أو صوف للسكن .

(٢) أى غفلة سكانها .

(٣) مجهزة ومستعدة

(٤) الرسائيق ، مفردهما الرستاق : وهى القرى الصغيرة وما يحيط بها من الأرض .

(٥) المرزبان : كلمة فارسية وهى تعنى الرئيس عند الفرس .

فلما شرع ذلك المرزبان فى الحشد والإعداد كتب عيون الأركان بتلك الجهة إليه يخبرونه بأن المرزبان المجاور لجهة بلاده قد أخذ فى حشد الأجناد وتأهب الاستعداد ، فعلم الأركان أنه قاصده ، ونجم النفاق ببلده ، وتحديث الناس بقصد المرزبان إليه وأكثروا الأراجيف^(١) فانتبه الأركان من غفلته ، وبحث عن الأمر ، فوقف على حقيقته ، وكان أمر مملكته يدور على خمسة رجال ، أربعة منهم هم وزراؤه ، والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة^(٢) والسذى يأخذون عنه دينهم . فجمعهم الأركان وعرفهم بما بلغه من فساد قلوب رعيته ، وحشد المرزبان لقصد بلاده ، وأظهر لهم الحاجة إلى كفايتهم . فجلسوا يتناظرون فى ابتغاء صواب الرأى .

فقال أحد الوزراء الأربعة : الرأى أن يستصلح الملك رعيته ، فيملاً أيديها رغبات وقلوبها أملاً ، حتى يستقيم معوجها ، ويأنس نافرها ، فإن عدونا إذا علم بذلك جبن عن الإقدام عليها ، وإن أقدم لقيناه بكلمة مجتمعة وأيد متناصرة .

فقال رئيس الزمازمة : إنما يصلح هذا من الرعية ، لو كان فسادها أوجب هضم جور أو عسف سيرة ؛ فيزال عنها سبب فسادها فتصلح ، وليست رعية الملك بهذه الصفة ، وإنما أورد عليها الفساد جهلها بمواقع الصواب ، وبطرها لترادف النعم .

وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البطر لم تزدتهم التكرمة إلا فسادا : الولد ، والزوجة والخادم ، والرعية . وضربوا لذلك مثلاً : القوى الأربعة المرذولة^(٣) ؛ إذا هاجت لتعدى حدود المصلحة وهى : الغضب إذا تعدى حد الشجاعة ، وحد الأنفة من الرذائل ، والشهوة إذا تعدت حد راحة العقل من كد اكتساب الفضائل ، والحرص إذا تعدى حد الكفاية ، والكميل إذا تعدى راحة الجسم من كد اكتساب المصالح ، فإن هذه القوى الأربع إذا تعدت هذه الحدود لم تزدنها المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا ، وإنما تعاني بحسم موادها .

فقال الملك : صدق الحكيم . ثم قال وزير آخر من الوزراء الأربعة : الرأى

(١) الأراجيف : الأخبار المختلطة الكاذبة السيئة .

(٢) أى أولو الأمر .

(٣) الفاسدة الرديئة .

عندى أن تضرب بمن صلح من الرعية من فسد منها ، حتى تستقيم وتستوثق لنا ، ثم نلقى عدونا بمن لا نخاف دغله^(١) ولا نحذر غشه ؛ لأننا مضطرون إلى الحرب ؛ لكون عدونا لا يرضيه إلا أخذ ما بأيدينا .

فقال رئيس الزمامة : هذا أنفع لعدونا من جيشه وأدعى إلى طاعته من دعائه مع أنه إذا علم بحربنا ، فيما بيننا وتناصبنا ؛ ذهبت هيبتنا من نفسه وبلغ فينا أمله .

وقد قالت الحكماء : أربعة من استقبلها بالعنف والردع فى أربع أحوال هلك بها : الملك فى حال غضبه ، والسيد فى حال صدمته ، والفيل فى حال غلمته ، والعامّة فى حال هيجها ومرجها .

وقالوا : إن أشبه شيء بردع العامة عند تتمرها وهيجها معاناة الجدري^(٢) فى حال انبعاثه إلى سطح الجسد بالأظلية الرادعة .

فقال الملك : صدق الحكيم ، فقال وزير ثالث : الرأى عندى أن نطلب أولا تعيين من فسدت طاعته من الرعية ، فنميزه ممن سواه ، ثم نرى رأينا بما يقتضيه حاله من قلة أو كثرة أو ضعة أو نباهة أو ضعف أو قوة ، فنقابله بما توجهه حاله من التكبير .

فقال رئيس الزمامة : البحث الآن عن هذا خطر عظيم ؛ لأنه يوحش المريب فيحركه على اللحاق بعدونا واعتماده بالنصائح ودلالته على عورتنا ، وإذا التحق مع عدونا قاتل معه على بصيرة ليست لعدونا ، وبذل جهده فى العود إلى وطنه وأهله وماله ، وعدونا لا يقاقلنا على مثل ذلك ، وربما لم يفصل عنا المريب بل يعادينا بموضعه ويكاشفنا ، ويتكثر علينا بشكله من الرعية فينصره ، وإن لم يكن على مثل رأيه لعلّة مشاكلته له ، كما أن الكلبين لا يمنعهما تعاديهما وتهارشهما^(٣) من التعاون على الذئب إذا أبصره ، ولا يلتفتان إلى تحقق الذئب فى الخلق الكلبى ، ولكنهما ينافرانه ويصطلحان فى التعاون عليه ، نظرا إلى خصيصى توحشه وأنفته وجرأته ، فكذلك العامى لا ينظر إلى الملك

(١) إفساده .

(٢) الجدري : مرض يسبب بثورا حمرا بيض الرؤوس تنتشر فى البدن وتتقيح سريعا وهو شديد العدوى .

(٣) أى تحرش بعضهما ببعض .

من حيث تحققه في الخلق الإنساني ، بل ينظر إليه من حيث خصوصى تفرده وأنفته وعلو همته ، فيناقره لذلك ويألف العامى الذى يشاكلة فى الأخلاق بعلة المشاكلة^(١) .

وقد قالت الحكماء : ثلاثة إن كاشفتهم بالامتحان فى ثلاث أحوال خسرتهم : مؤدبك فى حال استقلالك ، وصديقك فى حال اختلالك^(٢) ، وامراتك فى حال اكتهالك ، والرعية كالزوجة ، وإدبار الملك كالاتهال^(٣) .

وقالوا : مثل ذلك كمثل امتحان قوى معد الناقيين^(٤) من الأمراض بالأطعمة الغليظة .

فقال الملك : صدق الحكيم . فقال الوزير الرابع ، وكان أوسعهم حلماً وأفضلهم رأياً : أما أنا فأحدث الملك حديثاً أخبرنى به مؤبى وكان من آخر ما أفادنيه ، وقال لى : اخزن هذا الحديث فى حبة قلبك ، ولا تتمنى أن تعيش إلى اليوم الذى تحتاج فيه إليه ، وإنى لأحسبه هذا اليوم .

فقال له الملك : قل نسمع لحديثك .

فقال له رئيس الزمامة : ما أولى بالإصابة .

فقال الوزراء الثلاثة : إنه لكذلك .

فقال الوزير الرابع : إنما نحن كأصبع الراحة فى أفنقار بعضها إلى بعض وقوة بعضها ببعض وتزين بعضها ببعض ، ثم إنا نستمد من نور عقل الملك السعيد بنظرنا إليه واستماعنا منه كما تستمد الدرارى^(٥) من نور الشمس ، فكاننا إلى الملك محتاج وبه مقتد .

فقال الملك : قل أيها الوزير الصالح ، بالقبول والكرامة لك ولمن نبت عنه ، فأنتم فى مناصحتنا والغناء عنا والأداء إلينا كالحواس الخمس للقلب ، فسجدوا له

(١) المشابهة .

(٢) الاختلال : الكرب والضعف .

(٣) الإتهال ، مفرد ما تهيل : وهو الرمل المنهال المنصب . أى إن ملكه ينهال وينفرط مثل الرمل .

(٤) أى كإمتحان معدة من شفى من مرض فى فترة النقامة .

(٥) الكواكب .

أجمعون .

ثم قال الوزير الرابع : زعم مؤدبى أن رجلاً موسراً من التجار كان يأوى إلى بيت مبطن السقف ، وفيما بين ذلك السقف وبطائنه فئران كثيرة ، فكنّ فيما شئن وادعين من الأمانة وتيسير الطعمة ، يمرحن النهار كله على حال طمأنينة ، فإذا جاء الليل نزلن من السقف ، فتفرقن فى مخازن التاجر ومسكن عياله ، فأكلن واحتملن ، فكثر أذهن على التاجر ، وأنه دخل يوماً مسكنه ذلك فاستلقى فيه مفكراً فى بعض أموره ، وبخلت الفئران تمرح على بطانة السقف ، والتراب يتساقط من خلل الألواح فضجر التاجر ونهض مبادراً ، فأمر بتحويل ما فى البيت من الأثاث ثم أمر عبده فوضعوا بطانة السقف ، وانتشر الفئران فى الدار فقتلن شر قتلة ، ولم ينج إلا جرد^(١) وفأرة كانتا غائبين عن السقف ، فلما رجعا وأبصرا فساد وطنهما ومصارع الفئران فى جميع الدار راعهما ذلك ، وأقبل الجرد على الفأرة فقال لها : لقد صدق القائل : من صحب الدنيا واتقا بها كان كالنائم فى الظل الذى يكون قبل بلوغ الشمس إلى نصف دائرة فلها الأعلى ؛ فينقلص الظل بتصوب الشمس ، فيوقظه جزها ولا يجد للظل عينا ولا أثرا . فقالت الفأرة : صدقت فماذا ترى ؟

قال الجرد : أرى أن لا أسكن بموضع ينال منه هذا المنال ، وأقر من الأئس جهدى ، فإن هيجهم شديد وحيلهم أمضى من قوة غيرهم من العوالم . فقالت الفأرة : أنا معك ، فانطلقا حتى أتيا أرضاً بواراً جرداء ذات أخلاط من الوحوش ، تكتف^(٢) وادياً معشبا فيه غدران ماء ذات ضفادع وسلاحف . فأعجبهما ذلك وسارا فى الوادى يلتسان موضعاً يحتفران فيه جحراً ، وانتهيا إلى ربوة عالية فى وسط ذلك الوادى قد انجاب^(٣) عنها مسيل الماء فيه يمينا وشمالا ، فاحتفرا فى أصل تلك الربوة جحراً رضايا وأوطناه ، وأنهما غلباً يوماً

(١) فأر ذكر .

(٢) تحيط .

(٣) انشق وقطع .

من الأيام تلك الربوة ، فرأيا في أعلاها يربوعاً^(١) قد علت سنه على باب حجر له ، فرحب بهما وحادثهما وسألهما عن أمرهما ، فأخبراه إلى أن ذكرا له أنهما أوطنا حجرا في أصل تلك الرابية^(٢) ، فقال لهما اليربوع : لولا أن النصح كثيرا ما يدعو إلى التهمة لنصحت لكما . فقالا له : ما أوجنا إلى نصحك .

فقال لهما : إنه كان يقال : أربع لا تقدم عليها حتى تسأل عنها الخبير بها : السوق لا تقدم عليها حتى تسأل عن النافق^(٣) فيها والكاسد^(٤) ، والمرأة لا تقدم عليها حتى تسأل عن منصبها وخلقها ، والطريق لا تسلكها حتى تسأل عن أمنها وخوفها ، والبلد لا توطنها حتى تسأل عن مرافقها وسيرة مسلماتها وأخلاق أهلها ، وقوة من يكيد أهلها وبعادهم .

وكان يقال : انظر إلى المنتصح فإن أذاك بما يضر غيرك ولا ينفعك فاعلم أنه شرير ، وإن أذاك بما ينفعك ويضر غيرك فاعلم أنه طامع ، وإن أذاك بما ينفعك ولا يضر غيرك فاصغ إليه وعول عليه^(٥) .

وكان يقال : إذا لم تعن ناصحك على نفسك ، كان ناصحك كمن يريد تقويم ظل عود قد نصب معوجاً قبل أن يقيم العود في منصبه .

وكان يقال : إذا أردت أن تعلم ما يغلب على الإنسان من قوى الخير والشر فاستشره ، فإن دلالة رأيه عليه أصح دلالة .

وكان يقال : شر ما في عالم الأخلاق التعاطي ؛ لأن التعاطي يزيد المتخلق به شراً ويعرضه في مواسم الخزي ، وهذا كالضعيف يتعاطى القوة ، وكالجاهل يتعاطى العلم ، وكالفقير يتعاطى الغنى .

وكان يقال : إذا احتجت إلى المشورة فشاور ذي الحنكة والتجربة من طبقتك ، ولا تشاور من ليس من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجاً عن عالم خصائصك .

(١) نوع من القوارض ، يشبه الفأر له ذنب طويل ، قصير اليدين ، طويل الرجلين .

(٢) ما ارتفع من الأرض وهي التلة والربوة .

(٣) الرائج ، والمرغوب فيه .

(٤) غير المرغوب فيه .

(٥) أى اعتمد عليه .

واعلموا أنه قد جمعتنى وإياكما مناسبة صناعية وهى حفر الجحر ، إلا أنى فى علمها أرسخ منكما ، فانتقلا من جحركما ، فإنه بنس الجحر ومن شر الأوطان ، وأنا ابن بجدة^(١) هذه الأرض والخبير بها ، وقد قيل : قتل أرضاً خابرها ، فتحولا عن ذلك الجحر واطلبا ماوى سواه .

فخرجا من عند اليربوع يهزان به ، ويسخران منه ، وينسبانه إلى الهرم^(٢) والخوف ورجعا إلى جحرهما فلبثا به مدة طويلة وولدا فيه أولادا ، ثم إن الجرذ خرج يوما من الأيام فأوغل فى تلك الأرض لبعض شأنه ، ثم عاد قاصدا إلى الربوة ، فإذا السيل قد جرى فى ذلك الوادى ، فأحرق بالربوة وارتفع حتى صارت الربوة فى مثل البحر العجاج^(٣) ، فوقف على ضفة الوادى ينظر متحسرا لفساد وطنه وهلاك إلفه وذهاب ما أعد من طعامه ، فرأى اليربوع قاعدا على الربوة آمنا ، فناداه اليربوع : أيها الجرذ كيف وجدت ثمرة إضاعة الحزم ومعصية الخبير النصيح ؟ فقال الجرذ : وجدتها مرة .

فقال اليربوع للجرذ : هون عليك وخفض من حسرتك ، فإن النعمة فى بقاء نفسك تربي على المصيبة بأهلك وولدك ، فانس النعمة بالشكر تألفك ، فتستمتع بها .

وإنه كان يقال : أظهر البشر لثلاثة : للصديق ، والغريم ، والنعمة .

وكان يقال : الحر لا تذمه إساءة من كان أحسن إليه عن شكر إحسانه السالف عنده .

وكان يقال : إذا أحسن إليك محسن ثم تنكر لك وأصابك بمساءة ، فلا تتقبض عنه ودم على شكرك له وبرك به ، فإن ذلك أوجه شفيح لك عنده .

فقال الجرذ لليربوع : ما كان أشقانى أيها الحكيم بمعصيتك والبعد عنك ، وبحق قيل : العاقل ينبغى أن يصحب العلماء الممدنين بالحكمة والآداب ، ولو كنت ذا بصيرة لعلمت أنك أيها الحكيم لم تكلف نفسك صعود هذه الربوة

(١) أى أعلم بها وبأحوالها ، والبجدة هى الأصل .

(٢) أى العجز وكبر السن .

(٣) المضطرب الثائر .

الكؤود^(١) وهبوطها ، على ضعف بدنك وكبير سنك إلا لأمر اقتضته الحكمة وأوجه الرأي المصيب . ثم إن الجرد أمهل حتى ذهب السيل ، فصعد الربوة واتخذ جحراً جانب جحر اليربوع فأوطنه أمنا قرير العين ، فهذا ما أخبرني به مؤدبي .

فقال الملك : صدقت أيها الوزير الصالح قائلًا ، وسددت ناصحا ، وأصبحت مشيرا ، وتلطفت مبلغا ، ودعوت سميعا ، فالتمس لنا ربوة ترضاها لاستقرارنا ، نلزم أنفسنا الصبر على صعودها ، ونقصر ما فيها على مألوف ملاذها وانبساطها في هذا العالم الخبيث إليها ، قلنا^(٢) أن نجتني السلامة التي اجتناها اليربوع من سيل هذه الفتن .

فقال الوزير : أيها الملك السعيد المفدى بالنفوس الزكية ، عشت ما بدا لك أن تعيش ، وملت ما أملت ، فما أعجب قبولك ما نهديه إليك من نعمك ونجلوه عليك من حكمك ، وإني لأعرف في ناحية من ممالكك معقلاً تطل فيه على أهل الأرض إطلال زحل على الكواكب ، تقائل دونك الأبصار اللامحة والأفكار الطامحة ، وهو مع ذلك نو هواء عليل وماء سلسبيل ، وحدائق باسقة^(٣) ومرافق متناسقة ، وقد كان بعض سلف الملك السعيد عني به بعض العناية ، فقطع عليه^(٤) الحتم القاطع عقود الحياة .

فلما سمع الملك ما نله عليه وزيره ملئ سروراً وركب من فورهِ في خاصته ونقائه ، حتى انتهى إلى ذلك المعقل الذي نله عليه وزيره ، فوجده في رأى عينه أفضل مما صورهِ الوزير في نفسه ، ووجد به رسوما وثيقة وآثارا أثرها بعض من تقدم من آباته ؛ فحشد إليه المهندسين والبنائين والعمال ، وأمرهم بالجد في إكماله ، وبإدراك فورهِ ، فنقل إليه خاص بيوت أمواله ، وخزائن سلاحه ، ونفائس ذخائره وحشد رعيته لحمل الأرز إليه فأودعه من الأرز المقشور وغير المقشور ما ظن أن فيه كفاية ، وذلك أن الأرز الذي لم

(١) المضمضية والشاقة .

(٢) أى نَعَنَّا .

(٣) أى عالية الأشجار جميلة المنظر .

(٤) الخائب .

يقشر طويل البقاء ، وأعد لنزوله عدته وهو مع ذلك يسد الثغور ويجند الأجناد ويشيد الحصون .

فلما مضت له ثلاثة أشهر من يوم كتب إليه جواسيسه بحركة المرزبان وحشده ، اقتحم المرزبان ثغوره فى الجيوش المتوافرة والعدة الكاملة ، وظهر دعاة كسرى بتلك الناحية فيمن استفسدوه من الرعية ، فغلبوا على ما يليهم من البلاد ، واستعمل المرزبان عليها عمالا من نقاة أصحابه ، ورتب فيها حماة من جنده ومن أهلها ، ثم دنا يطوى الأرض ، فوافته جيوش الأركان فدافعته بعض الدفاع ، ثم انهزم من كان فى نفسه دغل ، فانهزم المناصحون بانهزامهم ، واستولى المرزبان على عسكرهم ، واستبقى النفوس ، وأخذ الأموال ، ثم تجاوزهم يطوى المملكة طيا ، وكان الأركان عندما اقتحم المرزبان ثغوره ، قد بعث بأهله وحشمه إلى ذلك المعقل ، وجمع وجوه قاطنى حضرته فوعظهم وذكرهم ما سلف من إحسانه إليهم وذكر ما بلغه عنهم من فساد الطاعة وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المسيئين منهم ، فنصلوا بما قرفوا^(١) به عنده ، وحلفوا له على استقامة طاعتهم وصدق مناصحتهم .

فقال لهم الملك : إني لم أجمعكم لهذا ولست بناكل^(٢) عن عدوى ولا بمستبعد الظفر به والنصر عليه ، ولا بمعين تهمة أحد منكم ، غير أنه أخبرنى بعض وزرائى عن ملك من سلفى أنه شرع فى بناء معقل وعنى به بعض العناية ، فحال بينه وبين ما أراد من إتمام ذلك الانحلال المحتوم على عالم التركيب ، فحملنى على تكملة ما شرع جدى قول الحكيم : إن أبر الملوك من تم به سلفه ، وأعقهم من انقطع سعيهم عنده ، ثم إني أحببت أن أجعل ذلك الحصن من عددى ونخائرى ، لقول الحكماء : إن أحزم الرعاية من أعد لجميع قضايا العقل أحكاما .

وقولهم : يجب على الملك أن لا يخلو من خمسة معاقل : أحدها وزير صالح يتحصن برأيه ، والثانى : سيف قاطع يتحصن بحدده إذا غشى ، والثالث : فرس سابق يتحصن بظهره إذا لم يمكنه الثبات ، والرابع : امرأة حسناء يحصن

(١) أى نفوا ما ارتكبه من خروج عن طاعته .

(٢) أى بجبان وناكص .

بها فرجه وبصره ، والخامس : قلعة منيعة يتحصن بحلولها إذا أحبط به ، فاتخذت هذا المعقل لتكمل به حصونى ونقلت إليه ذخائرى وما يكرم على ، فمن أراد منكم أن يقتدى بى فى فعلى أخذا بالحزم فليفعل .

ولما فرغ من مخاطبتهم أذن لهم فخرجوا من عنده ، فاقتدى به منهم من كان ذا عقل وخبرة ، فجهزوا إلى ذلك المعقل أهلهم وأموالهم وأقواتهم .

وأما المرزبان فإنه صار إلى تلك المملكة يطويها طى المسجل ؛ لا يقاومه جيش إلا هزمه ، حتى أشرف على حضرة الأركان فنزل على فرسخ منها وتهيب الإقدام عليها وقد كان الأركان أمر الناس بالخروج إليه ، فخرجت أمة عظيمة وخرج الأركان فى أربعة آلاف مقاتل من عبيده وخاصته وثقاة أصحابه ، فقام بهم فى معزل عن جيوشه ورعيته بظاهر المدينة وعبأ فيوله ورتب صفوفه ، وكان فى المدينة داعيان من دعاة كسرى فاغتمتا الفرصة واهتبلها^(١) عند خروج الملك من المدينة فظهروا واتبعهما من كان أطاعهما ، فوثبوا بخليفة الملك على المدينة ، فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها .

وبينما الملك قائم فى جنوده فى ظهر المدينة أتاه رئيس الزمامة حافياً حاسراً يلطم وجهه وينتف شعره ، فأمر الملك بحمله معه على فيله ، واستخبره فأخبره بذهاب دار ملكه وخيانة رعيته ، فأنحاز الملك بخاصته ومن كان على بصيرة فى طاعته وتوجهوا حامية نحو الحصن ، وانتهى خبره إلى المرزبان فوجه خيلاً لأتباعه فأدركه فوقف بإزائهم من كفى أمرهم وسار حتى دخل حصنه.

وأما المرزبان فإنه قصد المدينة ودخلها وضبطها وأحكم أمرها ، ثم سار فى جنوده إلى ذلك الحصن ، فرأى منظراً عجيباً رائعاً ومعقلاً ممنوعاً مانعاً ، لم يمكنه النزول بالقرب منه ، فنكص إلى حيث أمن ونزل فى جيوشه متحفظاً ، وكتب إلى الملك الهندى كتاباً يخاطبه فيه بالتعظيم والإجلال ، ويعرض عليه خصالاً منها أن يرده إلى مملكته مكرماً موفوراً على أن يدين بطاعة كسرى ، فلما انتهى رسول المرزبان إلى الملك الهندى حجبه ولم يأخذ كتابه وأمره بالعود

(١) أى انتهزا الفرصة .

إلى مرسله ، فيئس المرزبان منه .

وكان يقال : صرفك النظر إلى عدوك إضاعة ، وإصفاؤك السمع إلى حديثه طاعة .

وكان يقال : إذا أمكنت عدوك من أذنك فقد تعرضت للغرق في بحره والدخول في وهن سحره .

وكان يقال : عجباً لمن يصغى إلى عدوه سمعاً وهو لا يرجو عنده نفعاً .

وكان يقال : إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فأنت عن التحصن من كيدِه أعجز .

ثم إن المرزبان عاد إلى المدينة وكتب إلى كسرى بالفتح وبما تهيأ له وعليه من الأمور ، فكتب إليه كسرى يأمره أن يقيم بتلك المملكة ويترك التعرض لذلك الأركان في حصنه ، إلا أن يبدو منه فساد ، وأن يذكى العيون عليه ويقوم المسالِح^(١) في جهات حصنه ، ففعل المرزبان ما أمره به كسرى ولبث بذلك مدة وجعل أعوان الفرس يعيئون في تلك المملكة ويعاملون أهلها بالقسوة والقسوة التي طبع الهند على ضدها ، فدبت الشحنة^(٢) في النفوس ، ودخلت أهل تلك المملكة الخيرة لما رأوا أن خراج أراضيهم يحمل إلى غيرها وينفق في غير أهلها ، وعرفوا فضل ما كانوا فيه ، ومشقة ما صاروا إليه ، فبسطوا أسنتهم وخاف المرزبان أن يردعهم عن القول فيستوحشوا منه ، فكف عنهم فكان ذلك داعية إلى زيادتهم في بسط الألسنة .

وكان يقال : أيدى الرعية تبع لأسنتها ، فإذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تصول .

وكان يقال : ترك نكير الصغائر^(٣) مدعاة إلى الكبائر ، فأول نشوز المرأة^(٤) كلمة سُمِحتَ بها ، وأول حرض الدابة^(٥) حيرة سوعت عليها .

(١) المسالِح ، مفردُها مسلحة : وهو موضع السلاح ومركز الجنود .

(٢) العداوة والبغضاء .

(٣) أي الأفعال الصغيرة التافهة .

(٤) عصيانها لزوجها .

(٥) الحرض : مهزولة يقال : (ناقحة حرض) ، أي ضاوية مهزولة .

قيل : وأما الأركان الهندي فإنه لما استقر في حصنه شاور وزراءه ، فأشاروا عليه بالصبر وكف الأذى ، وبسط العدل والإحسان ، وتأمين السبل وإجارة المستجير ، وتأليف المستوحشين ، والأخذ بالفضل والعفو . فاتخذ هذه الخلال شرعا يدين به ؛ فأزادت سمعته حسنا والقلوب إليه ميلا والأسنة له شكرا .

واتفق أن عاملاً للمرزيان على ثغر من تلك الثغور أساء السيرة ، فقام إليه رجل كان أفضل أهل عمالته ونصح له فكره العامل ذلك ، وكتب إلى المرزيان يزعم أن رجلاً من أهل عمالته يعارض أمره ويؤلب العامة عليه ، فكتب إليه المرزيان يأمره بحمله إليه مقيداً ، فأخذ الرجل فقيدته وبعث به إلى المرزيان مع رجال من الجند ، فتبعهم أحداث من فتيان ذلك الثغر وفتاكهم ، فقتلوا أولئك الموكلين بذلك ، وأطلقوه ، فأتى الرجل إلى العامل فأخبره بما فعل أولئك الأحداث وأنه عجز عن دفعهم ، فأمر به العامل فضربت عنقه وكان ذا منزلة عند أهل بلده فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله ، وضبطوا ثغرهم ، وانضوى^(١) إليهم من كان على مثل رأيهم ، ومن كان في غير حصن ، وكتبوا من يليهم فأجابوهم إلى مثل ما صنعوا وطردوا عمالهم ، فانتقضت الطاعة لكسرى في مواضع كثيرة من تلك المملكة في أسرع مدة .

ولما انتهى ذلك إلى المرزيان جمع جنده وضبط حضرته على حال ذعر وتوق شديد ، وكتب إلى كسرى يستمده ، وكان أهل حضرته عندما خرج عنهم رئيس الزمامة ، وتوجه مع ملكهم إلى حصنه قدموا مكانه خليفة ، وكان مرضياً عندهم ، فلما رأى ما فيه المرزيان من الذعر والتوقى^(٢) وقصده من خافه بالمحنة والعفو له ، دخل على المرزيان فقال له : إنى أريد أن أسألك عن أمر ظننت علمه عندك .

فقال له المرزيان : قل . فقال : بلغنى أن مما أوصى أردشير بن بابك^(٣)

(١) انضم وانحاز .

(٢) التحرز .

(٣) أردشير بن بابك : مؤسس سلالة الساسانيين في فارس الذين حكموها ، وهو أول ملوكها ، فرض الزرادشتية ديناً لدولته ، وله العديد من المعارك الحربية التي انتصر فيها .
البدلية والنهاية (١٧١/٢) .

ملك بابل أنه قال : قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى ما لا تريد من المعصية ، وأنه قال في وصية : ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه^(١) ربه أن يحفظ الصورة والشريطة التي تسلم عليها تلك المملكة ؛ فإنها محفوظة عليه وثابتة في عقد تسلم تلك المملكة له ، فإنها ستخرج من يديه بمثل ما صارت إليه . وقيل : إن هذه الوصية كانت مكتوبة في مجلسه بإزاء سريره وموضع قضائه .
ففهم المرزبان ما أراد ، إلا أنه أحب الوقوف على آخر ما عنده ، فقال له : الأمر على ما بلغك أيها الشيخ .

فقال رئيس الزمزمة : إذا كان الأمر على ما بلغني فما لك لم تستعمل الحكمة التي علمت ، وعنفيت في سياسة الرعية عنفا أخرجها ، أو لعله أن يخرجها ، ولم تحذر خروج هذه المملكة من يدك بمثل ما صارت إليك ؟ .

فلما سمع المرزبان مقالة رئيس الزمزمة انتهره وتهده ، وكان شيخا ضعيف البدن كبير السن ، فسقط إلى الأرض مغشيا عليه وحمل إلى منزله فمات بعد أيام ، فعظمت المصيبة لموته وساعت القالة^(٢) ، وسمحت الأنفوس من الشقاق بما كانت منقبضة عنه ، وفشا ذلك في الرعية فشوا تماما ، فاستحضر المرزبان وجوه من حضرته فوعظهم وحذرهم بطش كسرى ورغبتهم في العافية ، فأرضوه بألسنتهم وتسللوا عنه وغلظ أمر أهل الأطراف المنتقضة ، وشغل عنهم المرزبان بتحضير البيضة^(٣) ، فبعثوا رسلا إلى الأركان الذي كان ملكهم يسألونه الصفع عنهم ، وأن يبعث إليهم رجلا يتحيزون إليه . فأعطاهم أماناً عاماً واستعمل عليهم عاملاً ، فألقوا إليه المقاليد واستبصروا في طاعته ونصحوا في الذب عنه .

واضطر المرزبان إلى أن يبعث إليهم جيشا ، فبعث فعادوا منهزمين مغلولين^(٤) ، ولم يجد بدا من الخروج إليهم بنفسه ، فحصن دار الملك واستخلف عليها من ظن أنه يضبطها ، وخرج منها متوجها إلى عنوه .

فلما فصل عن المدينة وثب أهلها بأصحابه ، فاستوعبوهم قتلا وتشريدا

(١) أي نصره .

(٢) أي سامت الأقاليل بين الناس .

(٣) البيضة : الخوذة من الحديد وهي من آلات الحرب لوقاية الرأس ؛ أي أنه استعد للقتال .

(٤) مشردين .

وأحرزوا مدينتهم ، وبلغ ذلك المرزبان ، فاستمر لوجهه خارجاً من تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريداً مفلولاً ، وعاد الأركان إلى دار ملكه يجرى على سنن العدل ، والأخذ بالحزم ، وقمع شهواته واستعمل الحكمة التي أفادته التجارب إياها .

روضة رانقة ورياضة فائقة

بلغني أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ^(١) رضي الله عنه قال لجلسائه وهو محصور في الفتنة : ودبت لو أن رجلاً صادقاً أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء ؛ يعني الذين حصروه .

فقام شاب من الأنصار فقال : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، إنك تطأطأت لهم فركبوك ، وتخادعت لهم فسلبوك ، وما جراًهم على ظلمك إلا إفراط حلمك .

قال : صدقت ، اجلس ، ثم قال : أتعلم أو هل لك علم بما يثير الفتنة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، سألت عن هذا شيخاً من تنوخ ^(٢) كان باقعة ، قد نقب في البلاد وعلم علماً جماً ، فقال لي : إن الفتنة يثيرها أمران أحدهما : أثره تضغن الحامة والثاني : حلم يجرى العامة .

فقال عثمان رضي الله عنه : فهل سألته عما يخمدها ؟ قال : نعم وقال لي : إن الذي يخمد الفتنة في ابتدائها استقالة العثرة وتعميم الخاصة بالأثرة ، فإذا استحكمت

(١) عثمان بن عفان : ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي ، أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، أبو عمر ، وأمه أروى بنت كريب ، ولد بعد الفيل بمسنة سنين على الصحيح . وزوج النبي صلى الله عليه وآله ابنته رقية من عثمان ، ومالكت عنده في أيام بدر ، فزوجه بعدها أختها أم كلثوم ؛ فلذلك كان يقب ذاك النورين . وجاء من أوجه متواترة أن رسول الله صلى الله عليه وآله بشره بالجنة ، وعده من أهل الجنة ، وشهد له بالشهادة ، وفضائله ومناقبه صلى الله عليه وآله تطول . مات سنة (٢٤هـ) ودفن بالبقيع . الإصابة (٥٤٦٤) أسد الغابة (٣٥٨٩) .

(٢) تنوخ : قال ابن الجوزي : وتنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا بالبحرين وتحالفوا على التناصر والتأزر ؛ فسموا تنوخاً . وقيل : قبيلة عربية مسيحية من الحيرة ، اعتنق أبناؤها الإسلام في عهد الخليفة المهدي وسكنوا حلب . البداية والنهاية (٧٢/١٢) .

الفتنة فليس لها إلا الأزم ؛ يعنى الصبر .

فقال عثمان رضي الله عنه : فهو ذلك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

تفسير ألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر

قوله باقعة : أى داهية مجرب ، ويقال : فلان باقعة بقاع إذا طوف بقاع الأرض واستفاد التجارب .

وقوله الأثرة : يعنى اختصاص بعض المستحقين للشيء به دون بعض وقوله الحامة : يعنى الخاصة .

وقوله تضغن : أى تحقد ، والضغن الحقد .

وقوله الأزم : هو الصبر والحبس ، وحقيقته الإمساك على الشيء بالأسنان

قال محمد عفا الله عنه : هذا الحديث ينحو إلى ما ذكره الفرس أن يزجر ابن بهرام ^(١) سأل حكيمًا من الفلاسفة : ما صلاح الملك ؟ قال : بالرعية ، وأخذ الحق منها بخير تعسف ، والتودد إليها بالعدل وأمن السبل ، وإنصاف المظلوم . قال : فما صلاح الملك ؟ قال : وزراؤه إذا صلحوا صلح .

قال يزجر : أيها الفيلسوف إن الناس قد أكثروا في الفتن ، فصف لى ما يثيرها وما يسكنها إذا ثارت .

فقال : يظهرها جراءة عامة ، ويولدها استخفاف خاصة ويؤكددها تبساط الألسن بضمائر القلوب ، وإشفاق موسم ، وأمل معسر ، وعطلة ملتذ ، ويقظة محروم .

فقال يزجر : وما الذى يسكنها أيها الفاضل ؟ قال : يسكنها أيها الملك أخذ العدة لما يخاف وإيثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم ، والادراع ^(٢) بالصبر والرضا عن القضاء .

(١) يزجر بن بهرام : من آخر ملوك الفرس الساسانيين ، هزمه المسلمون فى موقعة القادسية ونهاوند . وبوفاته انتهى حكم الأسرة الساسانية . البداية والنهاية (٣١/٧) .

(٢) أى الالتزام والتمسك .

السلوانة الرابعة

سلوانة الرضى

قال الله تقديس اسمه عاتبا من خطأ حكمته وتكبيره ومسخط قسمته وتقديره ﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].
ثم نبههم على ما حرّموه من فضيلة الرضا بقوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

ووصف صفوته من خلقه بالرضى فقال ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. ومما يفهمك معنى قوله تعالى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ما روى أن موسى عليه السلام قال: إلهي ذلني على عمل إذا عملته رَضِيتَ به عني . فأوحى الله عز وجل إليه : إِنَّكَ لَا تَطِيقُ ذَلِكَ ، فَخَرَّ مُوسَى سَاجِدًا مُتَضَرِّعًا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ : يَا ابْنَ عِمْرَانَ رِضَايَ فِي رِضَاكَ بِقَضَائِي .

خبر نبوي في الرضا

مما روينا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ﴿اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ﴾^(١).
قيل : إنما قال بعد القضاء ؛ لأن الرضى بعد القضاء إنما هو عبارة عن العزم على الرضى ، وتوطيئ النفس على الرضا بالقضاء إذا نزل ، وإنما يتحقق الرضا بعد حصول القضاء .

خبر نبوي في مثل ذلك

مما روينا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقي رجلا من أصحابه وقد أجهده المرض والحاجة ، فأنكره النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له : ﴿مَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى ؟ قَالَ : الْمَرَضُ وَالْحَاجَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَفَلَا أَعْلِمُكَ كَلِمًا إِنْ أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَتْ﴾

(١) جزء من حديث أخرجه النسائي : كتاب للمهرو ، باب الدعاء بعد الذكر (٥٥/٣) والإمام أحمد في مسنده (١٩١/٥) وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٧٤٢) وعزاه للطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد .

اللَّهُ بِهِ عَتَاكَ ؟ فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا يَسُرُّنِي بِحَظِّي مِنْهَا أَنِّي شَهِدْتُ
مَعَكَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَهَلْ لِأَهْلِ بَدْرٍ وَالْحُدَيْبِيَّةِ مَا
لِلْفَاتِحِ الرَّاضِيِ .

منثور ومنظوم حِكْم في الرضى

رَوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ (٢) :
أَمَا بَعْدَ : فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الرِّضَا ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرْضَى وَإِلَّا فَاصْبِرْ .

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ : أَنَّ الرِّضَا هُوَ إِطْرَاحُ الْإِقْتِرَاحِ عَلَى الْعَالَمِ بِالصَّلَاحِ ، إِذَا
كَانَ الْقَدْرُ حَقًّا كَانَ سُخْطُهُ حُمَقًا ، مِنْ رَضَى حَظِّي ، وَمَنْ تَرَكَ الْإِقْتِرَاحَ أُلْفَحَ
وَأَسْتَرَاحَ ، كُنْ بِالرِّضَى عَامِلًا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لَهُ مَعْمُولًا ، وَسِرْ إِلَيْهِ عَادِلًا وَإِلَّا
صِرْتَ إِلَيْهِ مَعْدُولًا .

وقيل للحسن البصرى (٣) : من أين أوتى الخلق؟ فقال من قلة الرضا عن

(١) عمر بن الخطاب : ابن نفيل القرشى العدوى ، أبو حفص أمير المؤمنين ، ولد بعد الفيل
بثلاث عشرة سنة ، وكان إليه السفارة في الجاهلية ، وكان عند المبعث شديداً على
المسلمين ، ثم أسلم ، فكان إسلامه فتحاً على المسلمين ، وفرجاً لهم عند الضيق ، قال
عبد الله بن مسعود : وما عبدنا الله جهرة حتى أسلم عمر ، وقال عنه الرسول ﷺ
«اللهم أيد الإسلام بعمر» ، وروى عن النبي ﷺ أنه بشره بالجنة وشهد له بالشهادة ،
ومناقبه ﷺ لا يسعها هذا المكان . الإصابة (٥٧٥٢) الرياض المستطابة (١٤٧) أسد
الغابة (٣٨٣٠) .

(٢) أبو موسى الأشعري : عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب ، الإمام الكبير ،
صاحب رسول الله ﷺ التميمي الفقيه المقرئ ، وهو معدود فيمن قرأ على
النبي ﷺ . قرأ أهل البصرة ، وفقههم في الدين ، وولى إمرة الكوفة لعمر ، وإمارة
البصرة ، جاهد مع النبي ﷺ وحمل عنه علماً كثيراً . مات سنة (٤٤٤هـ) سير أعلام
النبلاء (١٨٨) .

(٣) الحسن البصرى : الحسن بن أبي الحسن يشار ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، وكانت
أمه مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية . وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً . وكان
من أعلم الناس بالحلال والحرام . مات في أول رجب سنة (١١٠هـ) وكانت جنازته
مشهودة ، صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة ، فشيعة الخلق ، وازدحموا عليه ، حتى إن
صلاة العصر لم تقم في الجامع . سير أعلام النبلاء (٦٠٠) .

الله، فقيل له : ومن أين قلّ رضاهم عن الله ؟ قال : من قلة المعرفة بالله .
ومما قلته في الرضى :

يَا مَقْرَعِي فِيمَا يَجِي
عِنْدِي لِمَا تَقْضِيهِ مَا
وَمِنَ الْقَطِيعَةِ اسْتَعِيدُ
وَرَأِحِي فِيمَا مَضَى (١)

ومن ذلك :

كُنْ مِنْ مُتَبَرِّكِ الْحَكِيمِ
وَارْضَ الْقَضَاءَ فَإِنَّهُ
حَقٌّ أَجَلٌ لَهُ أَجَلٌ
عَلَا وَجَلَّ عَلَيَّ وَجَلَّ (٢)

ومن ذلك أيضاً :

يَأْمَنُ يَرَى حَالِي وَأَنْ لَيْسَ لِي
وَلَيْسَ لِي مَلْتَحِدٌ ذُونُهُ
حَاشَا لِذَلِكَ الْفَضْلِ وَالْعِزِّ أَنْ
وَأِنْ تَشَأْ هُلْكِي فَيَا مَرْحَباً
كُلُّ عَذَابٍ مِنْكَ مُسْتَعْدَبٌ
فِي غَيْرِ مَا يُرْضِيهِ أَوْطَارُ (٣)
وَلَا عَلَيْهِ لِي أَنْصَارُ (٤)
يَهْلِكُ مَنْ أَنْتَ لَهُ جَسَارُ
بِكُلِّ مَا تَقْضِيهِ وَتَخْتَارُ
مَا لَمْ يَكُنْ قَبْلَكَ
وَالنَّارُ

ومنه أيضاً :

إِذَا أَنَا لَمْ أَدْفَعْ قَضَاءَ كَرِهْتُهُ
فَصَبْرِي لَهُ مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَتِي
بِهِ
بِشْيءٍ مِوَى سَخَطِي لَهُ وَتَبْرُمِي
كَمَا أَنْ رِضْوَانِي بِهِ مِنْ
تَكْرُمِي

روضة راقية ورياضة فائقة

قيل إن يزيدجرد الأثيم ابن سابور ذي الأكتاف ، لما وُلِدَ له ابنه بهرام جور ،

(١) المقرع : قابل المشورة .

(٢) الوجل : الخوف .

(٣) الأوطار ، مفردهما وطر : وهو الحاجة والبغية .

(٤) الملتحد : الملجأ .

أخبره منجموه بقوة مولده ، وسعادة جدّه ، ووصول الملك إليه بعد شدة ومحنة وطول اغتراب ، وأنه ينشأ بين أمة نابية^(١) ؛ ذات همم عليه ، وحلوم زكية^(٢) ، ونفوس أبية ، وبهم يصير الملك إليه ، فأجال يزدجرد فكره في خصائص الأمم ومزاياها ، فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق التي وصف له المنجمون ، ووقع اختياره عليهم .

فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر اللخمي^(٣) فاستحضره وأشخص إليه جماعة وأقرة من رؤساء العرب وساداتها ، فوصلهم ويرهم وأخبرهم بما يريد من تملك النعمان عليهم ، فأنعموا عليه بذلك ، فشرف النعمان وتوجه وملكه عليهم وعلى العرب وسلم إليه ابنه بهرام ، وأمره بكفالته ، فأخذ النعمان واسترضع له أربعة نسوة ، صحيحات الأجسام ، ذكيات الفهوم سنيات الأعراق وسريات الأخلاق ؛ امرأتين من العرب وامرأتين من الفرس ، وأجرى عليهن ما يصلحهن ، وانكأ ببهرام إلى بلاده فبنى له الخورنق^(٤) ؛ لما اتفق عليه من طيب الهواء وفضيلة الماء ، فأرضع المرضعات بهرام أربعة أعوام ثم فصلنه ، وقد صار غلاما جفرا السرعة^(٥) نشأته وشبابه .

ولما استكمل بهرام خمسة أعوام قال للنعمان : انظر في تعليمي ما يحتاج الملوك إليه ، فحدث بينهما محاورة ، ليس هذا موضع نكرها أودعناها كتابنا المسمى (درر الغرر) المضمن أنباء نجباء الأبناء ، فكتب النعمان إلى يزدجرد

(١) أي ذات شرف ورياسة .

(٢) الحلوم : مفردا حلم : وهو العقل .

(٣) النعمان الأكبر : ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر بن الحارث بن عمرو بن لخم بن عدى بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبا بن يعرب من قحطان ، ملك ثمانين سنة وبنى الخورنق في ستين سنة . قال السهيلي : الخورنق قصر بناه النعمان الأكبر لسابور ليكون ولده فيه عنده ، وبناه رجل يقال له سنمار في عشرين سنة ولم يرى بناء أعجب منه فخشي النعمان أن يبني لغيره مثله ، فألقاه من أعلاه فقتله ففي ذلك يقول الشاعر :

جزائي جزاه الله شر جزائه جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

البدلية والنهاية (١٧٩/٢) .

(٤) الخورنق : قصر بظهر الحيرة بناه النعمان الأكبر ، كما تقدم . معجم البلدان (٤٤٦٢) .

(٥) أي متوسط ومعتدل في نشأته .

يسأله أن ينفذ إلى ابنه رجالا من حكماء الفرس وفقهائهم ومعلمي كتابهم ، فأرسل إليه يزيدجرد بحاجته منهم ، ثم إنَّ النعمان ضم إلى بهرام رجلا من علماء العرب وحكمتها ودهاتها ، كان ذا بصيرة بالسياسة وخبرة بكثير من اللغات وحفظ لأخبار الملوك وسيرتها ، ومعرفة بأيام العرب وغيرها ، وكان اسمه حلما ، فأفاد بهرام كل واحد من معلميه ما عنده من العلم .

فلما استكمل من السن اثنتى عشرة سنة ؛ فاق معلميه كلهم ، واعترفوا بفضله عليهم ، واستغنائهم عنهم ، فصرفهم النعمان مكرمين ، وكره بهرام مفارقة جلس الحكيم ؛ لكونه يجد عنده من المحاسن والآداب والسياسة والأخبار والذهاء ما لم يره مجتمعا في غيره ، واستدعى النعمان من يزيدجرد من يعلم ولده الرماية والفروسية وما يحتاج إليه المحارب ، فبعث إليه يزيدجرد بمن أراد منهم ، فمكثوا عند النعمان ثلاث سنين ، فلما استولى على جميع ما عندهم من ذلك صرفهم مكرمين وأمسك حلما لشغفه به .

ولما استوفى من السن خمس عشرة سنة ؛ استأذن النعمان الملك يزيدجرد في القدوم عليه بولده ، فأذن له في ذلك ، فوفد النعمان على يزيدجرد بابنه بهرام وأوفد معه رؤساء العرب وزعماءها ، فأحسن يزيدجرد وفادتهم وأكرم نزلتهم ، وأجزل صلة النعمان ، وضاعف تشريفه وسرحه وأمسك ابنه بهرام عنده ، واحتبس بهرام حلما لعلوق نفسه به .

وكان يزيدجرد فظاً غليظ القلب ، شديد الكبر غليظ الحجاب ، مجترئاً على سفك الدماء ، واغتصاب الأموال ؛ ولذلك سمى الأثيم ، فعامل ابنه بهرام بالقسوة التي طبع عليها ، وأتعبه وكده واستعمله على مجلس شرابه ، فتبرم بهرام بما ناله من أبيه وعيل صبره وضاق نرعه ، فشكا ذلك إلى جلس فرق جلس لشكواه ، ثم أقبل عليه فقال له ما معناه : جلى الله كريك وأعلى كعبك ، وأطاب ذكرك في قلوب الأمم وأفواهها ، وكب لعزك ملوك العرب والعجم لجباها .

وقال له : إن أولى الناس بإمحاء النصيحة^(١) ؛ من كان معروفا بها ،

(١) أى بإخلاص لا غش فيها .

ومندوبيا لها ، ومدعوا إليها ، ومحضوضا عليها .

وإنه قيل : النصائح بشعة المبادئ حطوة العواقب ، فهي كالألوية ؛ يسوء استعمالها ، ويسر مالها ، ويذم عيبها^(١) ، ويمدح غيبها^(٢) .

وكان يقال : الأمين يصحب الملك باللزوم على الخدمة ، والمبالغة في النصيحة ، والخائن يصحب الملك بحسن المداراة وإفراط التذلل .

وكان يقال : إنما يسعد النصحاء بمنثله إذا كان مؤيدا بفضيلة العقل ، فإن لم يكن كذلك شقى به النصحاء وسعد به نور الملق ؛ وهذا لأن الناصح ينفق على من نصح له من عقله ، وبالعقل يدرك العقل .

وكان يقال : أشد اللؤم أن تضن بالنصح على من سمح لك بالثقة ، وأن تستر الصواب عنم هناك لك حجاب سره .

وكان يقال : أولى العقلاء النصحاء بقبولك منه وإقبالك عليه من كانت سعادتك شرطا في سعادته وعلّة لها ، ومن كنت معه بهذه المنزلة فسعيه لك سعى لنفسه ، وذبه عنك ذب عنه . . .

ثم قال جلس لبهرام : إنه قد ساعنى تبرم ابن الملك وضجره لما لقي من خدمة أبيه الملك ، وأنا أشير على ابن الملك بإظهار المسرة بما أظهر به التبرم والضجر ، إذ كان الملك قد استعمله على عمل لا بد للعامل فيه من إظهار البشر والطلاقة ، وإن من صحب الملوك بما لا يوافقها تحركت عليه بالغضب ، ولا ينبغي مع هذا أن يظهر من ذلك ما يبطن خلاقه ، فإن الرياء ينصل^(٣) عن الطبع نصول الخضاب^(٤) عن الشعر ؛ ولكن ليتأمل ابن الملك القضية التي كرمها بعين العدل يظهر له حسنهما ، وذلك أن الملك استعمله على مجلس شرابه الذي هو جماع لذته ، وجالب طربه ومسرتة وراحة نفسه من نصب التدبير

(١) جَزَّعُهَا .

(٢) الغب : عاقبة الشيء كالمغبة .

(٣) نصلت اللحية : خرجت من الخضاب .

(٤) الخضاب : ما يخضب به اللحية وغيرها ؛ أى ما تلون به ، وعادة يكون الخضاب بالحناء .

ومشقة ، ووكل إليه مع هذا حراسة مهجته ورضيه لها بحفظها في مجالس خلوته ، ووثق بكفايته في صون شرابه من بلية وأفة يقصده به أعداؤه من جهة الشراب ، أو خلل يدخله على عقله السكر والاضطراب ، وكيف يصلح أن يعدل عن الولد الحبيب النجيب بهذا العمل العلى قدره العظيم خطره ؟ أم كيف تطيب نفس الولد الفاضل أن يرى أباه صارفا هذا العمل إلى سواه ؟ فليصرف ابن الملك فكره إلى ما ذكرته له ؛ ليكون ما يظهره من الغبطة بهذه الخطة راجعا إلى عقد يوافقه ومعنى يطابقه ، ولا يتخلق من ذلك بما يتمنى رفضه ، ويبرم منه ما يستحب نقضه ، فينم عليه بما أسره توسم الأبصار^(١) وتكهن الأفكار^(٢) . فإنه كان يقال : الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة ، ولا يخفى عن البصائر الباصرة .

وكان يقال : إنما ينبسط سلطان الرياء على السمع والبصر اللذين يدركان الشهادة دون الغيب ، فأما العقل فلا ينبسط سلطان الرياء عليه ؛ لأن الأول الآخر قد كاشفه بكثير من الغيب لاختصاصه إياه .

ثم قال حلس : قد فطن الدب على بلادته لرياء القرد ، فقال بهرام : أخبرني عن ذلك .

فقال حلس : ذكروا أن دبا كان يسرح في غيضة ذات أشجار مثمرة ، وكان في تلك الغيضة قرد ، فكان الدب يرى قوة القرد على رقى الشجر والتطرف لأغصانها ، ويمكنها بذلك من اجتناء أطايب الثمرات ، فحدث نفسه بأن يصيد قردا منها فيكلفه أن يجتني له الثمر ، فصعد شجرة وألقى نفسه منها ، والقردة تنظر إليه وجعل يتضرر ويتخبط طويلا ، ثم تماوت فخفت وفتح فمه وأخفى نفسه ، واجتمع القردة لرؤيته ، فقال لها حازم منها : إنه لايبعد أن يكون هذا الدب متصنعا خادعا وإن الحزم أن يتجنب ويحذر منه ، فإن لم يكن بد من اللدو منه ، فهلم نجمع حطبنا وندوره حوله ونضرم فيه نارا ، فإن كان متصنعا افتضح وإن كان ميتا فلا ضرر علينا في احتراقه .

وأنه كان يقال : عدوك ضدك ، وحكم الضنين التثائي ، والتنافر ، والتباين

(١) أى حُسن وتبيين الأبصار .

(٢) الادعاء بمعرفة الغيب .

، والتدابير .

وكان يقال : لا تطأ أرضاً وطنها عدوك إلا على توق واحتراس ، وتوقى
افتراس ، ولا يغرك خروجه منها وبعده عنها ، فربما رتب فيها شياكا ، ونصب
لك بها أشراكا .

وكان يقال : لا تغش عدوك إلا متسلحا متحرزا متحفظا ، ولا يغرك منه
استسلامه وإقاؤه السلاح ، فما كل سلاح يدرك بالبصر ، وقد غرَّ الراهب اللص
بمثل ذلك فتم له عليه ما أراد . فقالت القردة : أخبرنا عن ذلك .

فقال : ذكروا أن راهبا كان فاضلا من الرهبان وكان متبتلا في قلالية^(١) له
بظاهر اللانقية^(٢) ، وكان شيخا فانياً قد نهكته العبادة ، وكان النصراني يخصونه
بالصدقات فيقبلها ، ويعطيها أهل الفاقة^(٣) لزهده في الدنيا ، وأن لصا من
اللصوص رأى كثرة ما يخص به الراهب من الصدقات ، فحدث نفسه بأن
يتسور^(٤) على قلاليته ، وظن أنه سيصيب عنده كثيرا .

فتحول ليلة من الليالي حتى تسور القلالية وحصل مع الراهب في بيت تعبده،
فوجده قائما يصلي والسراج يزهر في البيت فصاح اللص بالراهب : فرأيها
الشيخ قبل أن ألقى عنك رأسك ، فالتفت الراهب فرأى اللص ، وإذا هو شاب
شديد البنية في يده سيف مصلت ، فعلم أنه لا قبل له به ، فقطع صلاته وفر بين
يدى اللص إلى ناحية من البيت في حائطها طاق^(٥) ، فأدخل الراهب رأسه
في الطاق ، ورد يديه إلى خلفه كما يصنع بالكتوف^(٦) ، فلما رأى اللص أن
الراهب قد استسلم وخبأ رأسه ألقى سيفه ووثب نحو الراهب ليقبض عليه ،

(١) القلالية : كلمة يونانية تعنى مسكن الأسقف والرهبان .

(٢) اللانقية : مدينة في سوريا على ساحل المتوسط وهي أيضاً ميناء . فتحها العرب قديماً .
وهي من أعمال حمص وهي غربي جبلة وهي الآن من أعمال حلب . معجم البلدان
(١٠٥٣٢) .

(٣) الفاقة : أهل الحاجة والفقير .

(٤) أى يصعد على الحائط .

(٥) نافذة .

(٦) الكتوف : الذي شدت يده إلى خلف الكتفين .

فانخسف به ما تحته وسقط في دهليز^(١) القلاية سقوطاً أوهنه ، فمكث على حالته لا يجد محيصاً^(٢) عن الموضع الذي حصل فيه ، حتى أصبح فدل الراهب عليه ، فأخذ وصلب ، وقد كان الراهب قد اتخذ في طريق اللطاق نقبا وجعل عليه طبقا ينقلب بلولب إذا اعتمد عليه ، وغطاه ببعض فرش البيت ، فلما قصد إلى اللطاق هاربا بين يدي اللص خطر من ذلك النقب وتخطاه لمعرفته بموضعه ، فلم يضع رجله على الطبق ، واللص لم يعرف ذلك ولا استعمل الحزم بالتحفظ ، بل عول على ما ظهر له من استسلام الراهب ولم يدر أنه أعد له سلاحا لا يدركه البصر .

فلما سمعت القردة المثل الذي ضربه لها حازمها ، توقفت عن الإقدام على الدب وانتشرت تجمع الحطب لإحراقه ، فأتى غر من القردة لم يكن حاضرا ذلك الموضع ولا سمع مقالة الحازم ، فدنا من السذب وأصغى بأننه إلى أنف الدب ليسمع حس نفسه ، فقبض الدب عليه وعمد إلى عرق من عروق الخيزران^(٣) فربط طرفه في وسط القرد وكلفه أن يصعد الشجرة فيجتني له أطايب الثمر ويلقيها إليه ، والدب ممسك بالطرف الآخر من الخيزرانة ، فلبث بذلك بقية يومه ثم انصرف به الدب إلى غاره ، فأدخله فيه وسد بابه عليه بصخرة ، ولما أصبح غدا على القرد فأخرجه من الغار وانطلق به إلى الغيضة يجني له الثمر عامة يومه^(٤) ، ثم راح به إلى الغار فسجنه به ، فلبث بذلك مدة والدب قد بلغ مناه ، والقرد في أسوأ حال وأعظم مشقة ، يظل نهاره في خدمة الدب ويبيت ليله في سجنه .

وكان يقال : من تعرض لما لا يعنيه تورط فيما لا قيل له به ، وكان يقال : شهوات العاقل من وراء فكرته ، فإذا اتبعت له شهوة مرت بفكرته فنظر في مبادئها وعواقبها وبدبر فيها بحكم الرأي ، وفكرة الأحمق من وراء شهوته فكلما

(١) الدهليز : كلمة فارسية تعنى المسلك الطويل الضيق بين الباب والدار .

(٢) مهرياً ومفراً .

(٣) الخيزران ، مفرد خيزرانة : وهو نبات كبير الحجم تستعمل عيدانه لصنع الكراسي أحياناً .

(٤) أي طوال يومه .

انبعثت له شهوة مرت نافذة لوجهها لا يصدما شئ . وكان يقال : إنما صار يسير المؤنة المتحملة للعدو شاقا ؛ لأن الأرواح تحتل منها أضعاف ما تتحمل الأبدان ، فيصير الأذى بها عاما ، وليس كذلك المؤمن المتحملة للحبيب ؛ لأن الأرواح تتلذذ بها وتستخدم الأبدان لها .

قيل : ثم أن القرد تفكر في حاله ، فظهر له أن نصيحته في خدمة الدب تمنعه من الخلاص منه ، فندم على نصحه في خدمته وعلم أنه لن ينجيه منه إلا الحيلة ، فطالت فكرته في ذلك إلى أن اتجه له وجه الحيلة فيه .

وكان يقال : إذا كان المملوك ميث الشهوة ، بليد الفكرة ، رذل الهمة فهو سلّم لمالكة ، وإن لم يكن بهذه الصفات فإن له فيه شريكا هو أملك به من سيده ، وذلك أنه إذا كان متحرك الشهوة كان منقادا لطاعتها ، وإذا صحت فكرته أعملها في طلب الراحة من النصب^(١) ، والخلاص من الأسر وإقامة الحجج في الدفع عن نفسه ، وإذا سمت همته انصف بالغضب والأثفة^(٢) والحقد ، وتدبر بما يريد لا بما يريد سيده .

قيل : وكان مما عوّل القرد عليه من الخديعة للدب أن يتظاهر بضعف البصر ، فصار يلقي إلى الدب من الثمر ما لاخير فيه ، فزجره الدب عن صنيعه فلم ينزجر وضربه فلم يرتدع ، فلما طال عصيانه عليه قال له : إني قد سئمت من زجرك وضربك ، وقد حدثت نفسي بأكلك لأنه لم يبق لي فيك منتفع

وكان يقال : إذا لم تجد من الخدمة إلا من أساء أدبه فاخدم نفسك ولا تستخدمه ؛ لأنه يحمل على قلبك من المشقة أضعاف ما تحمل على يدك .

فقال له القرد : إني لست على ما تصفني به من سوء الأدب ولو قتلتنى لندمت كما ندم الطحان حين قتل حماره . فقال له الدب : أخبرني عن ذلك .

فقال : حكى أن طحانا كان له حمار يطحن به ، وكانت له زوجة سوء يحبها وهي تحب جارا لها ، وذلك الجار الذي تحبه يبغضها ويمتتع منها ، فرأى

(١) التعب والإعياء .

(٢) عزة النفس .

الطحان في منامه قائلاً يقول له : احتقر في موضع كذا من مدار الطاحونة تجد كنزا ، فحدث امرأته برؤياه وأمرها بكتمانه .

وكان يقال : من زعم أنه يجد راحة في إفشاء سره إلى غيره فيلتهم عقله؛ لأن مشقة الاستبداد بالسر وترك المشاركة فيه ، أقل من مشقة الحذر من انتشاره بسبب المشاركة فيه .

وكان يقال : أمران يسلبان الحر كمال الحرية وهما قبول السر^(١) ، وإفشاء السر . وشرح هذا إن قبلت برئه فقد أوجبت على نفسك الخضوع له ، والإحسان يرق^(٢) الإنسان ، وكذلك من أطلعت على سرك فإن حذرك من إفشائه يلزمك ذل النقية^(٣) .

وكان يقال : المرأة مؤهلة لبيت نغمه ، وطعام ترمه ، وشبق تسكنه وتثير به، فمن أشركها في أمره وأطلعها على سره فقد التحق بعالمها ، إذ ليس في قواها الالتحاق بعالمه .

قيل : فلما حدث الطحان امرأته برؤياه ، أخبرت بها جارها الذي تهواه وتقربت بها من قلبه ، فواعدها أن يطرقا الموضع ليلاً ليتعاونتا على حفره ، وفعلا ذلك ، فوجدا الكنز واستخرجاه فقال جار المرأة لها : كيف نصنع بهذا المال ؟ قالت : نقسمه نصفين بالسواء ، ينطلق كل واحد منا بنصفه إلى منزله وتفارق أنت زوجتك ، وأحتال أنا في فراق زوجي ، ثم تنزوجني فإذا اجتمعنا على النكاح جمعنا المال فكان بأيدينا .

فقال لها جارها : أنا أخاف أن يطغيك الغنى فتتكحى غيري ، وأنه كان يقال : الذهب في المنزل كالشمس في العالم . وكان يقال : من بلغ من اليسار^(٤) ما فوق قدره تنكر لمعارفه ، وكان يقال : اليسار مفسدة للنساء تغلب شهواتهن على عقولهن ، وكان يقال : لا تسمح لولدك ولا لامرأتك وللخادمك بما فوق الكفاية ، إن طاعتهم لك بقدر حاجتهم إليك .

(١) أى الإحسان .

(٢) يستعبد .

(٣) أى الصيانة والستر والحذر .

(٤) السعة من العيش والغنى .

ثم قال لها : بل الرأي أن يكون جملة المال عندي ؛ لتحرصي على التخلص من زوجك والحقاق بي ، فقالت له المرأة : إني أخاف منك مثل الذي خفت مني ولست مسلمة إليك حظي من هذا المال ، فلا تحسني على حظي منه وقد أثرتك بالدلالة عليه ، وإنه كان يقال : إنما صار العدل والإنصاف مشكوراً عليهما لفساد الزمان ؛ لأن الشكر إنما يجب لمن تفضل بحق هو له ، فأما من أعطى الحق أهله ؛ فهو محمود لا مشكور .

فلما سمع مقالاتها دعاه البغي والشره والحذر من نميمتها عليه إلى قتلها ، فقتلها وألقاها في موضع الكنز ، وبعثه الصبح فأعجله عن مواراتها ، واحتمل المال وخرج به ، ودخل الطحان على أثره ، فربط حماره في المدار ، وصاح به فمشى خطوات ثم اعترض الحفير^(١) والقتيل بين يديه في مداره ، فوقف فضربه الطحان ضرباً شديداً والحمار يتلوم ولا يمكنه التقدم ، والطحان لا يدرى ما بين يديه ، فأخذ سكيناً ونخسه^(٢) نخسات كثيرة ، ثم استشاط^(٣) غضبه فطعنه بها على خاصرته^(٤) فمرت فيه السكين وسقط ميتاً . ولما انتشر الضوء رأى الطحان الحفير ووجد امرأته فيه قتيلاً فاستخرجها فرأى آثار الكنز فاشتد أسفه على ذهاب الكنز وهلاك المرأة والحمار ، فقتل نفسه .

فلما سمع الدب مقالة القرد قال له : قد ظهر فيما ضربت من المثل عذر الحمار فما عذرك أنت ؟ فقال له القرد : بصرى ضعف وأخاف عليه أن يذهب بالجملة ، فإن رأيت أن تنتظر في صلاحه فذلك بيدك .

فقال الدب : ومن لي بصلاح بصرى فإن فيه صلاحى ؟ فقال القرد : إن الأطباء لكثير ، ولكن العاقل لا يستطب لألمه من لم يكن من عالمه ، وإن للقردة بهذه الأرض طبيياً تصفه بإجادة الطب والزهد في متاع الدنيا ، وإني لأستروح العافية من تلقائه وأستلوح^(٥) الفرج في لقائه .

(١) الحفير : ما حفر من الأرض وهو القبر .

(٢) أى غرز السكين بجانبه .

(٣) أى اشتد واشتعل غضبه .

(٤) أى بطنه .

(٥) أى تبصر فيه .

فأجابيه الدب إلى ما أراد ، فقصد به القرد قردا كان موصوفا بالخبيث والدهاء، فلما بلغا إليه فر من الدب ، فقصد شجرة وقام الدب تحتها ، فقص عليه قصة غلامه ورجب إليه في مداولته ، فقال له القرد الخبيث : دعه يطلع حتى أنظر إلى عينيه فأرخى له في الخيزرانة ، فصعد يتأمل عينيه ويسأله عن خبره ، فقص عليه خبره مع الدب ، وسأله أن يفتح له باب المكيدة في الخلاص من يده ، فقال له القرد الخبيث : إني سأحملة على السهر ، فاحتل لنفسك بانتهاز الفرصة إذا نام وكن على حذر من أن يتاوم ليختبرك .

ثم أمره بالنزول ، فنزل ، وأقبل القرد الخبيث على الدب فقال له : إنه ينبغي أن أعرفك داء عبدك قبل أن أدلك على دوائه ، إذ يستحيل العلم بالدواء من الجاهل بالداء ، فاعلم أن القردة إنما صحت جسومها ، وقلت لحومها ، وتوقفت فطنها وفهومها ؛ لأنها وفرت على السهر دواعيها ، وجعلت ليلها حظا من مساعيها .

وإنه كان يقال : كثرة النوم تجلب الدمار وتسلب الأعمار .

وكان يقال : من لزم الرقاد حرم المراد .

وكان يقال : لا يصح أن يقال في حد الجود أنه سماحة النفس بالنفس ، ولو صح هذا لكان أجود الأجواد من كثر نومه ؛ لأنه سمح بحياته التي لا يجد له كفاء ولا يصيب منها عوضاً .

ثم قال القرد الخبيث للدب : إنك لما أخرجت عبدك هذا عما اعتاد أدخلت عليه الفساد كما صنَّع بالطائر الذي أصيد لابنة الملك ، فقال له الدب : أخبرني عن ذلك .

فقال القرد : ذكروا أن ملكاً من ملوك اليونانيين كانت له ابنة تكرم عليه جداً، فهاجبت بها المرة السوداء ، فأدخلت عليها أنواعاً من الأمراض ، وبلغ بها الأمر إلى الامتناع من الغذاء والدواء ، فأشار طبيبيها بأن تنقل إلى ارتفاع تشرف منه على بستان مونق^(١) وماء جار ، ففعل ذلك بها ، فرأت في اليوم الذي نقلت فيه إلى ذلك العلو طائراً فيه من كل لون قد نزل على دالية^(٢) ، فأكل

(١) أى مزهر جميل .

(٢) شجرة الكرم .

من عنبها ، ثم غرد تغريداً عجبياً بأنواع من النغم المطربة ، فارتاحت الجارية لما رأت وسمعت من الطائر واستدعت الغذاء .

وكان يقال : أفضل النغم المطربة ما سمع من الصورة الحسنة ، يحرك الشهوة والطرب جميعاً ، فتتظافر القوتان وتعلان فعل الأدوية المركبة ، فإنها لنجح من الأدوية المفردة وأشد فعلا.

قيل : ثم إن ذلك الطائر أسرع الذهاب ولم يعد يومه ذلك ، فظهر على ابنة الملك القلق لغيبته ، ولما كان الغد عاود الطائر الدالية في مثل وقته بالأمس ، فسرت ابنة الملك بعودته ، فاستبشرت وارتاحت وأكلت وشربت ، وانصرف الطائر في يومه كما انصرف في أمسه ، فعاوذاها القلق لغيبته ، وبلغ الملك خبرها في ذلك ، فأمر باصطياد الطائر فاصطيد وجعل في قفص ، وأتحف ابنته به فاشتد سرورها ، واغتكت وتداوت ، ورأى الطبيب انتعاش قوامها فعالجها وطمع في سلامتها ، ولم يعلم بأمرها مع الطائر ، وأن ذلك الطائر لبث عندها أياما لا يصوت ولا يطعم شيئا ، وأخذ حسنه في التغيير ، فعادت الجارية إلى أسوأ أحوالها ، وجعلت تذوب لما نالها من الاهتمام بأمر الطائر مضافا إلى مرضها ، وعلم بذلك أبوها فقدم على اصطياد الطائر .

وكان يقال : لا تكن تلميذاً لمن يبادر إلى الأجوبة عن المسائل قبل أن يتدبرها ويتفكر فيما يتفرع عنها ، ويعد لدفع ما يمكن أن يعترض به على جوابه، ويلزمه خصمه من المناقضة لأصوله ، كما إنك لا تستشير الغر الذي لا يتجاوز مبادئ الآراء إلى عواقبها ، ولكن تلمذ⁽¹⁾ لمن يتفكر في الأواخر قبل أن يجيب عن الأوائل، كما تشاور المحنك المدبر لبطون الأمور وظهورها المطلع على مبادئها وعواقبها .

قيل : فلما علم الطبيب ما انتقلت حال الجارية إليه من الفساد ، عرف أن ذلك لعارض طراً عليها ، فبحث عنه فاطلع على قصتها مع الطائر ، فأشار بأن تُنصب شباك محيطه بالبستان علواً وسفلاً ، فصنع ذلك على ما أشار ، فأطلق الطائر في البستان ، فلما رجع الطائر إلى ما اعتاده وانثفه ، راجعته صحته

(1) أي كن تلميذاً .

وحسنه وألف تغريده ، فصلحت بذلك الجارية ، ونقعت^(١) من مرضها .

قيل : فلما قضى القرد الخبيث ما ضربه له من المثل ، قال له الدب : قد سمعت مقالتك ووعيت حكمتك ، فمُرّني بما فيه مصلحة عبيدي هذا ؛ أطع أمرك ، فقال له القرد : إني أمرك أن تتأخر في مسرحك^(٢) جزءاً من الليل ، فإن ذلك زيادة في عمرك وطعمتك ونعمتك ، ومهيج لنشاطك وانبساطك ، ومضاعف للذة منامك ، ومساعد لمصلحة غلامك ، فشكره الدب على نصحه ، وانطلق بعبدته إلى مسرحه ، فاجتنى له في نهاره ذلك أخابث الثمر ، فلما جاء الليل أظهر القرد نشاطاً ومرحاً ، واجتنى في تلك الليلة أضعاف ما يجتنيه ثمرات طيبات ، فلبث بذلك صدرأً من الليل ، ثم انكفاً^(٣) به الدب إلى الغار فسجنه فيه وغدا عليه كعادته .

ولبث القرد أياماً يتظاهر فيها إذا أجنّ الليل بقوة البصر ، ويجتني للدب أطايب الثمر ، على حال تدرّيج ، والدب لم تسكن نفسه إلى الثقة بالقرد ، بل يتكهن عليه أنه متصنع خادع ، وكلما زاد القرد في تصنعه زاد الدب في الريبة به ، وإنه ليلة من الليالي أراد الانصراف إلى مأواه فجعل القرد يماطله ويقول : ها هنا ثمرات طيبات ، فيتأخر الدب ، لما طبع عليه من الشره والنهمة^(٤) وكانت ليلة مقمرة ، فحدث الدب نفسه بأن يتناوم ليختبر القرد ، ويمتحن ظنه به ، فتناوم وجعل يخط^(٥) ، فما كذب أن وثب القرد هارباً فجذبه الدب بالخيزرانة جذبة شديدة ، فانقطع ظهره منها ومات .

قيل : ولما بلغ الحكيم حلس الأعرابي إلى غاية هذا المثل الذي ضربه لبهرام أمسك عن القول ، فقال له بهرام : ما أبهجني بقربك وأقر عيني بما تفيدني من حكمك ، وتضرب لي من أمثالك ، وتجلوه على من ملحك ، ولئن

(١) أي شفيت مع ضعف .

(٢) المسرح : المرعى .

(٣) رجع .

(٤) أي كثرة الأكل .

(٥) أي نخر في نومه واستغرق فيه .

بقيت إلى أن تدول لى دولة لأجعلتك أول داخل على وآخر خارج عنى ،
وسأروض نفسى بأرائك مستعينا بالله ، فسجد حلس ودعا له بنجح الأمل .

ثم إن بهرام جور شهد والده لولة من ليالى سروره وقد نضر النور بين
يديه، فكان مثل الزرابى المخملة^(١) ، والتيجان المرصعة^(٢) ، فتكرر بهرام بين
يديه أيامه عند النعمان ، وانتجاعه الرياض الأنيقة ، وشربه فيها على الأزاهر
المطلولة^(٣) ، إلى ما كان ينعم به من مياطرة الوحوش فى معانها^(٤) ومراعيها ،
والنفكه بطرادها واصطيادها ، فأطرق واستولت عليه الفكرة ، وعبس وتنفس
للصعداء ، وأبوه يزدجرد يسارقه النظر ، ثم إنه استفاق فنظر إلى أبيه وعلم أنه
كان بمراى منه ، فأسقط فى يده ولم تمض إلا ساعة حتى قبض الملك بشره
ونكس رأسه ، فنهض كل من بحضرته من ندمائه وسماره ، وكانت تلك عادة
ملوك الفرس ، إذا عبس الملك منهم أو أطرق لم يبق بحضرته أحد إلا استوى
قائما على حال خشية وسكون .

وكان ليزدجرد مضحك طريف اللسان ، لطيف الفطنة ، حسن الاختراع،
جيد البديهة حلو النادرة ، فحضر ذلك المقام وفطن للأمر الذى تنكر له الملك ،
وأن ذلك لما كان من عبوس ولده وإطراقه فى مجلس المسرة ، فحدث ذلك
المضحك نفسه بأن يحسن إلى بهرام ويصطنع عنده يدا ، فتحيل له بحيلة
يخلصه بها من غضب أبيه ، وبينما هو يناجى نفسه بالحيلة فى ذلك رفع الملك
رأسه إلى ذلك المضحك ، فنظر إليه كأنه يحركه على أن يصطنع شيئاً فيه سلوة
له ، فسجد المضحك ثم جثى على ركبتيه وقال : إن العبد يستأذن الملك فى أن
يخبره عن نفسه بخبر عجيب ، فنظر إليه بهرام كالإذن له .

فقال المضحك : إن العبد كان فى حداثة سنة كلفاً بالنساء مفرطاً فى الشبق
إليهن ، إلا أنه كان ملولاً لا يلبث على محبة من أحب منهن ، وكان كلما
استحسن امرأة هام بها ، وتهالك فى حبها .

(١) الزرابى ، مفرد ما الزربى : وهو ما يبسط ويتكأ عليه . المخملة : أى اللينة كالقطيفة .

(٢) أى التيجان التى نظمت فيها الجواهر .

(٣) أى الأوانى التى أصابها الطل وهو الندى .

(٤) أى وديانها ومنازلها .

وكان يقال : من أتبع لحظة هواه أنحضه وأهواه .
وكان يقال : كن من عينك على حذر ؛ فرب جموح حين جناه طموح عين

وكان يقال : ما أحرى الملول بأن يحرم المأمول .
وكان يقال : السامة^(١) من أخلاق العامة وليست من أخلاق السامة^(٢) .
وكان يقال : التنقل من حلة إلى حلة كالتنقل من ملة إلى ملة .

ثم قال المضحك : وإن العبد دخل بلاد السند^(٣) فبينما هو يطوف ببعض مدنهم رأى امرأة لم ير قبلها في حسن الصورة ، وامتداد القامة ، ورشاقة الحركات ، ولباقة الإشارات ، وسحر الطرف ، وثائق اللطف ، فتبعها العبد وهو لا يرى مواطئ قدميه من الدهش حتى بلغت منزلها فدخلته ، ولزم العبد باب منزلها ليلا ونهارا ، فأرسلت تستعفيه من لزوم بابها وتحذره سطوة أهلها ، فشكا العبد إلى رسولها ما يلقاه من الشغف ، وأعلم الرسول أنه لا معذل له عن بابها ، وأنه مستميت في طلبها ، فلهبت عن العبد مدة ، ثم أعادت الرسول إليه ، فرده العبد إليها بمثل كلامه الأول ، فأرسلت إلى العبد تقول له : إنى أظن بك الممل والغدر ، ولولا ذلك لأسرعت إلى مساعدتك وإتي متزوجتك بشرط الوفاء ، فإن غدرت أهلكتك بعد أن أنكل بك نكالا يضرب به المثل ، فإن التزمت هذا الشرط فأقدم وإلا فانح بنفesk قبل أن يتعذر عليك الخلاص .

وكان يقال : أربعة ترفع الرحمة عنهم إذا نزل بهم المكروه : من كذب طبيبه فيما يصف له من دائه ، ومن تعاطى ما لا يستقل بأعبائه ، ومن بدد ماله في لذاته ، ومن أقدم على ما حذر من آفاته .

وكان يقال : من بصرك فقد نصرك ، ومن وعظك فقد أيقظك .

وكان يقال : من أوضح وبين فقد نصح وزين ، ومن حذر وبصر فما غدر

(١) الممل .

(٢) السامة : الحيوانات والماشية .

(٣) السند : بلاد بين بلاد الهند وقرمان وسجستان فتحت في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي .
ومذهب أهلها الغالب عليها مذهب أبي حنيفة النعمان . معجم البلدان (٦٦٨٣) .

ولا قصر .

قال المضحك: فالتزم العبد الشرط وأعطى من نفسه الموائيق على الوفاء ، فتزوج العبد المرأة وبلغ منها أمنيته ، فلبث معها مدة ، فزارتها تَرَبُّباً^(١) لها فلمحها العبد فأعجبته ، ومالت نفسه إليها ، فتبعها العبد إلى منزلها وجعل يرأسها ويلازم بابها ، فاقتربت منه وشكته إلى امرأته ، فعاتبته امرأته على ذلك وزجرته ، وأذكرته العهود ونهته ، فازداد لجاجاً^(٢) ، فلما رأت ذلك منه سحرته فصار أسود اللون مشوه الوجه ، وجعلت تستخدمه في كل مهنة ، فما شغله ما هو فيه عن أن هوى أمة سوداء، فجعل يتبعها في تصرفها ويتعلق بها ويؤذيها ، فلما كثر ذلك على الأمة شكته إلى امرأته التي سحرته .

وكان يقال : إنما كان المطبوع أملك به من أدب المؤدب ؛ لأن الطبع أصلى وتمده القوى الناشئة معه ، فهو أملك بالنفس التي هي محله لاستيطانه إياها وكثرة أعوانه بها ، والأدب طارئ على المحل غريب به .

وكان يقال : أضل المؤدبين سعياً من رام من المتأدب أن يعاونه على نفي طبعه عنه ، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه وآثر عنده من مؤدبه ؟ لكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المنموم من طباعه وتعميته والتورية عنه .

قال المضحك : فلما بلغ امرأة العبد ما كان منه ، اشتد غضبها عليه ، ثم سحرته فصار حماراً ، فجعلت تكريه^(٣) ممن يستعمله في أشق الأعمال ، ويستعمله أثقل الأحمال ، فلبث بذلك مدة طويلة ولم يشغله ما هو فيه من البلاء عن أن يهوى أتانا^(٤) ، واشتد شغفه بها ، وكان كلما رآها نهق وطلبها أشد الطلب ويرد عنها بالضرب ، فيلقى من ذلك بلاء شديداً ، واتفق أن امرأة العبد الذي سحرته زارت ابنة ملك تلك المدينة فكانت معها في علو لها تشرف منه

(١) صديقة .

(٢) إلحاحاً .

(٣) توجَّره .

(٤) أنثى الحمار .

على ما حوله ، وكان العبد فى ذلك اليوم قد استأجره شيخ كبير السن ضعيف
البدن ، فاحتمل عليه أوانى فخار فى جولقين^(١) ، ومر به على قصر ابنة الملك
، فرأى عند القصر تلك الأتان التى يهواها ، فما ملك نفسه أن نهق وقصدها ،
وفعل بها ما تفعل الحمير عند ذلك ، وجعل الناس يضربونه من كل جانب
والفخار يتساقط على ظهره ، والشيخ صاحب الفخار بصيح ويستغيث ، وجعل
الصبيان والسفلة يغططون^(٢) من كل جهة ، والأتان فارة بين يديه ترمحه وهو
يطلبها على تلك الحال .

فرأت ابنة الملك ذلك كله فأعجبها وأضحكها ، فقالت لها امرأة العبد التى
سحرتة : يا ابنة الملك ألا أخبرك بأعجب مما رأيت من هذا الحمار ؟ قالت لها
: بلى فافعلنى ، فقالت : إنه زوجى ، وقصت عليها خبر العبد ، فاشتد تعجبها
مما سمعته وسرت به ، ثم سألتها أن تبطل سحر العبد وتخلصي سبيله ، فأجابتها
إلى ذلك فأبطلت السحر عن العبد فسار بشراً سوياً ولم يكن له هم إلا الفرار من
بلاد السند .

فلما انتهى المضحك إلى هذا المبلغ سكت ، وقد كان الملك يزجره لشد
ضحكه ؛ لما سمعه من حديث المضحك ؛ ولما شاهده من حركاته فى وقت
حديثه ، فلما سكن ضحكته وعاوده الوقار والأبهة ، أقبل على المضحك وقد
اكفهر^(٣) له فقال : ويحك ما حملك على أن تكذب هذه الكذبة الشنعاء ، كأنك ما
علمت أنا نحظر الكذب على رعيتنا ونعاقبها عليه ، وقد قالت الحكماء : الكذب
كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة ، وقد تدخل فى تراكيب الأدوية فينتفع
بها ، فلا ينبغى للملك أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح ، كالكذب فى
كيد الأعداء ، وفى تألف البعداء ، كما لا ينبغى أن يطلق ملك تلك السموم التى
نكرناها إلا للمأمونين عليها المانعين لها من المفسدين .

(١) الجواق : كلمة فارسية وهو العيول ، ما يحمل عليه من صوف وشعر .

(٢) أى يصدرون أصواتاً ماجنة تقارب أصوات القطا .

(٣) أى عيس .

فقال المضحك : أيها الملك السعيد إن هذا مثل تضمن من الحكم ما يعود بمصلحة المرتاض به^(١) ، والذي حملنى على ذكره أمر يلزم ستره عن غير الملك .

فأشار الملك إلى جلسائه ، فقاموا فخرجوا عن مجلسه ، ثم قال للمضحك : هات ما عندك .

فقال المضحك : إن عبد الملك يخبره أن ولده الفاضل بهرام عاشق .

فقال الملك : لمن ؟ قال : لابنة الأصبهيد .

فقال الملك : لقد كان من بهرام فى هذه الليلة ما يدل على صدقك ولا لوم على ولدنا فى ذلك ، إذ لم يضع من نفسه بمحبة ابنة حافظ ملكنا وسيد أوليائنا، وسيلغ ولدنا أمنيته ويحسنُ إليه باطلاعنا على أمره ، فاكنتم ذلك حتى ينفذ أمرنا فيه .

ثم إن يزجرد أذن لندمائه ، وسماره ، ومطرييه ، وولده فعادوا إلى مجلسهم وأخذوا فيما كانوا فيه ، ورجع إلى يزجرد سروره وطربه إلى أن انقضى مجلسه وخرج القوم من عنده ، وتبع المضحك بهرام وأخبره بالخبر على وجهه فشكر له ووصله، ثم إن يزجرد أنكح ابنه بهرام ابنة الأصبهيد ، ولم يزل بهرام يروض نفسه على الرضى بخدمة أبيه حتى انقادت لما أراد منها ، فلبث بذلك إلى أن قدم أخ لقيصر على يزجرد ساعيا فى الصلح والهدنة والموادعة ، فأكبر يزجرد قصده، وعرف له فضله وأحسن نزله .

فلما رأى بهرام منزلة أخى قيصر عند يزجرد استشفع به عنده فى رده إلى النعمان ، فشفعه وأذن لبهرام ، فتحول إلى بلاد العرب فكان فيها على ما أحب ، إلى أن هلك أبوه وورث ملكه .

قال محمد عفا الله عنه : هذه خاتمة سلوانة الرضى ، وقد عن لنا أن نذكر ما تكمل به بهجتها ، وهو الإخبار عن مهلك يزجرد وما أحدث رعيته بعده

(١) أى المقتدى به .

وكيفية مصير الملك إلى ابنه بهرام ، وذلك مما ذكر المعتنون بأخبار ملوك
الفرس ، أن يزيدجرد لما كثر عسفه^(١) ، واشتد عتوه^(٢) ، وعدل عما نهجه سلفه
من العدل والرأفة ، اجتمع وجوه رعيته من نوى الصلاح عندهم فدعوا الله
على يزيدجرد وسألوه معافاتهم منه ، فرحم الله ضراعتهم واستجاب دعاءهم .

وبينما يزيدجرد جالسا في منتزه له دخل عليه حاجبه ، فأخبره أن فرسا
متوحشا عريانا قد جمع محاسن صفات الخيل ، فهو ذو صورة لم ير الراؤن
مثله ، جاء يشتد عدوا حتى قام بيباب الملك ، وأن الناس تهيّبوه فلم يجترئ أحد
على أن يذو منه ، وأن الخيل قد نافرته فما تقدم عليه ، فاستخف يزيدجرد ما
سمعه من وصف الفرس ، فنهض نحوه ، فلما عاينه ملئ إعجابا به ودنا منه ،
فخضع له الفرس فمسح يزيدجرد بناصيته ووجهه ، وقبض بناصيته ، وأمر
بإسراجه وإلجامه ، فألجم وأسرج .

فيقال : إن يزيدجرد استدار بالفرس ومسح كفله^(٣) فرمحه الفرس رمحة خر
منها ميتا ، وملا الفرس فروعه عدوا ، فما عرف إلى أين توجه ، ويقال : بل
ركبه يزيدجرد وحركه فسبق الأبصار حتى أتى البحر فاقتمح به والله أعلم أي
ذلك كان .

ولما رأى الفرس أن الله قد أراحهم منه ، أجمعوا على أن يخرجوا الملك
من ولد يزيدجرد خوفا من أن يسن فيهم مثل سنة أبيه ، فملكوا رجلا من أبناء
ملوكهم السالفة يقال له : كسرى ، وكان مرضيا عندهم ، فمحا ما شرعه
يزيدجرد من المظالم وأعفى الفرس من جميع ما كرهوه ، فعرف بركة رأيهم في
تمليكه .

وانتهى الخبر إلى النعمان فأطلع عليه بهرام وأخبره أنه عاضده وناصره
ويأذل نفسه وماله في مرضاته ، فشكر له بهرام وأمره بشن الغارات على
أطراف بلاد الفرس مع الكف عن سفك الدماء ، فأمر النعمان العرب بفعل ذلك

(١) ظلمه .

(٢) فساده وقسوته .

(٣) عجزه ومؤخرته .

ففعلوهم ، فاشتد ضررهم وأرسلوا إلى النعمان يستعفونه ويسألونه العود إلى إحسان المجاورة ، فلما انتهى الرسل إلى النعمان قال لهم : إنما أنا خادم الملك بهرام أفعل ما أمرني به فاذهبوا إليه ، فذهبوا إليه فلما عاينوه ملأ عيونهم جمالا وصدورهم جلالا ، فخرروا له ساجدين وسألوه العفو والصفح ، فأجمل خطابهم وبسط آمالهم ، وأمرهم أن يبلغوا من وراءهم أنه حسن الرأي فيهم مؤمل لإصلاح شأنهم ، وأنه متوجه إليهم ليتولى إخبارهم عن نفسه وإقامة الحجة عليهم ، فليتأهبوا لذلك .

ثم صرف الرسل مكرمين وأمر النعمان فكتب له عشر كتائب في كل كتيبة ألف فارس من أنجاد^(١) العرب ، ثم سار فيهم ، وسار النعمان بين يديه في جيش كثيف ، فلم يكن عند الفرس لهم مدافع حتى انتهوا إلى دار الملك ، فنزلوا بظاهرها ، فخرج إليه زعماء الفرس وحفظة دينهم ، ونصب لبهرام كرسي فجلس عليه ، وقام النعمان بين يديه ، وتقدم إليه القوم فسجدوا له وقاموا لديه ، فأذن لهم في الكلام فتكلم رئيس الموابذة^(٢) فحمد الله وذكر رأفته بخلقه ، ثم ذكر ما سار به يزدجرد من الجور وما فعل الله به ، ثم أتبع ذلك بذكر كراهة الفرس لتمليك من ولده يزدجرد ؛ لما يتخوفونه من سلوك سبيل والده ولا سيما وقد نشأ بين الأعراب الذين يصلحون جسومهم بإخراب الأرض ، وسأله أن يعفى الناس مما كرهوه ؛ فإنهم لا يملكونه طائعين ولا يقصرون في نفاعه عن ذلك بكل ما أمكنهم .

فلما قضى رئيس الموابذة كلامه ، تكلم بهرام فحمد الله سبحانه وشكر نعمه عنده ، وصدق رئيس الموابذة فيما نسب إليه يزدجرد من الجور والعسف ، ثم اتبع ذلك بذكر ما كان يتمناه من مصير الملك إليه ؛ ليزيل رسوم الجور ويشد قواعد الحق ، ويذيق الرعية من حلوة رأفته وإحسانه أضعاف ما أذاقهم أبوه من غلظته وإساءته .

ثم أعلمهم أنه لا يترك تراث أبيه ولا يالو جهداً في تحصيله ، وأنه مع ذلك يدعوهم إلى أن يضعوا تاج الملك وزينته بين أسدين ضاربين ويحضر هو

(١) أنجاد ، مفرد ما نجد : وهو الشجاع السريع الإجابة إلى ما دعى إليه .

(٢) الموابذة ، مفرد ما الموبد : وهو قاضي المجوس .

وكسرى المتغلب على ملك أبيه ، فمن أخذ التاج والزينة من بين الأسدين ؛ فهو بالملك أولى .

وذكر لهم أنه إنما يفعل ذلك رافة برعيته ، وصونا لهم عن مقاومته ودفاعه ، وثقة بنصر الله وعونه لما يعلمه من حسن طويته وخلوص نيته ، ورغبته في إصلاح الأرض وأهلها .

فرضى زعماء الفرس بما بذله بهرام من نفسه ورجوا الراحة منه بذلك من غير مشقة تتألم في دفعه ، وانقلبوا عنه متعجبين من جماله وكماله وفصاحته وأبهته .

ثم عمدوا لأسدين ضاربين فجوعوهما ، وأخرجوهما إلى ظاهر المدينة في قفصين من حديد ، وفي عنق كل واحد منهما سلسلة في طرفها وتد من الحديد ، فضربوا الودين في جهتين مختلفتين وجعلوا بينهما بقدر ما إذا خرج كل واحد من الأسدين فقصده الآخر بلغ إليه ، وجعلوا تاج الملك وزينته بينهما ، وبحيث يمكن كل واحد من الأسدين الوصول إليهما والذب عنهما ، وفتحوا القفصين عن الأسدين فخرجا ، وقد اجتمعت أمة عظيمة من الفرس واجتمع العرب فقاموا بإزائهم ، فخرج بهرام من قبته وقد شد وسطه بمنطقة^(١) ، وجمع ذبوله إليها ، فأقام بإزاء الأسدين بين الصفوف ونادى كسرى : أن اخرج أيها المتوثب على ملكنا المتغلب على ترائنا ، فخذ تاج الملك الذي انتزعته من أهله .

فأجابه كسرى إنك أولى بالتقدم على ما أعطيت من نفسك ؛ لأنك الداعي إليه المتبرع له ، ثم إنك تطلب الملك بوراثة وأنا غاصب ، فدنا بهرام من الأسدين ولا سلاح معه ، فلما رأى رئيس الموابذة أن بهرام قد عزم على فعل ما بذل من نفسه ، ناداه : يا بهرام إنك مستميت ولا إثم علينا فيك ، فقال بهرام : أجل أنا فعلت ذلك بنفسى ؛ ولكن لرأفتى بكم ولا بد من فعله ، فقال له موبذان : إن كنت لابد فاعلاً فبء إلى الله بذنوبك وتب إلى الله واستعن .

فذكر بهرام ذنوبه وتاب إلى الله منها وسأله العون ، ثم دنا من الأسدين فقصده الأسد ، فلما قاربه راغ عنه بهرام روغة ، ثم وثب من الأرض ، فإذا

(١) النطاق وهو ما يشد به الوسط .

هو على ظهر الأسد ، فضم الأسد بفخذه ضمة تبلد لها الأسد وفرج بين قوائمه وثبت مكانه يلهث ، وقصده الأسد الآخر فانتهى إليه حتى ألصق رأسه برأس الأسد الذى تحته ، ولم تمكنه السلسلة من زيادة التقدم ، فقبض بهرام على أذنيه ، وجعل يضرب برأسه رأس الأسد الذى تحته حتى سقطا جميعا ميتين ، فقام بهرام قائما على قدميه وحمد الله على صونه وعونه وأزال ذيوله من منطقه ، وتناول تاج الملك فوضعه على رأسه ، فناداه كسرى الذى كان الفرس ملكوه ليُهَيِّبَ بهرام الملك بن الملك ما أعطاه الله من ميراث سلفه ، فكلنا له سامع مطيع ، ثم ارتفعت أصوات الفرس بالدعاء له ، وتقدم إليه موبدان موبذ فأخذ بيده ، وأجلسه على سرير ملكه ، وشد عليه زينة الملك ، وبأه^(١) له بالطاعة وتتابع زعماء الفرس على ذلك .

وركب بهرام فدخل المدينة ونزل بقصر أبيه ، وفرق الأموال فى نوى الحاجات وأهل النجدة ، وحبا النعمان وشرقه وتوجه ، وأجاز العرب الذين صحبوه بأسرهم على أقدارهم ، ثم إنه وفى لرعيته بمواعيد عدله وإحسانه ، ولم يزل محمودا فيهم حتى هلك ، وقد دون الفرس له أخبارا عجيبة أودعنا منها خيرين نادرين كتابنا المسمى (نثر أنباء نجباء الأبناء) .

وبعد ؛ فالحمد لله بما هو أهله وصلى الله على محمد وأهله .

(١) أى أقر واعترف .

السلوانة الخامسة

سلوانة الزهد

قال ربنا تقديس اسمه مخاطباً أحلم من استخلفه في أرضه ، وأعلم من كلفه ما يرتضيه ، الذي كان عاضده على ما يستكفيه وعاصمه فيما يبديه ويخفيه ﴿وَلَا تَمُنَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] . هذا بعد أن خيره أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختر فقير الملك على غنى الملك ، وأنشدوا في ذلك :

وَقَالَ جِبْرَائِيلُ عَنْ رَبِّهِ	خَيْرَتَ فَاخْتَرْتُ يَا ذَلِيلَ الْهُدَى
نُبُوَّةَ قَسَىٰ حَالِ عَنِّيَّةِ	تَخَوَىٰ بِهَا الْقَدْحَ الْمُعْلَىٰ غَدَا
أَوْ حَالَ تَمْلِيكَ يَخْرُ الْعَدَىٰ	بَيْنَ يَدَيْهِ صَبِيحًا مُنْجِدًا
يَنْبُغُكَ الْأَطْوَادُ مِنْ بَعْدِ مَا	يُعِيدُهَا مُبْدئُهَا عَسَجِدًا ^(١)
فَاخْتَارَ مَا يَخْطَىٰ بِهِ أَجْلًا	لِلَّهِ أَفْـذَىٰ وَمَا
	أَسْعَدَا

خبر نبوي في زهد الملوك

من حديث ابن مسعود رحمه الله قال : ((إن ملكاً ممن كان قبلكم بينما هو في ملكه أدركه الخوف من الله سبحانه ، قال : فترك ملكه وخرج حتى أتى النيل فكان على شاطئه يضرب اللبن ؛ يعني الطوب ويقفات من ذلك ، فسمع الملك الذي كان في أرضه بخبره فأرسل يقول له : كن بمكانك حتى ألحق بك ، وترك الآخر ملكه ولحق به فكان أمرهما واحداً إلى أن هلكا)). قال عبد الله بن مسعود : لو كنتُ برملة مصر لأريتكم قبريهما بما نعتنا لنا رسول الله ﷺ .

ورويناه بلفظ آخر وهو أن عبد الله بن مسعود قال : ((بَيْنَمَا رَجُلٌ فِي مَوْكِبِهِ ، تَذَكَّرَ فَعَلِمَ أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ مُنْقَطِعٌ ، وَأَنَّهُ قَدْ شَغَلَهُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَانْسَابَ مِنْ قَصْرِهِ لَيْلًا وَصَارَ إِلَى مَمْلَكَةٍ غَيْرِهِ ، فَاتَى سَاحِلَ الْبَحْرِ يَضْرِبُ اللَّبْنَ وَيَقْتَدِي مِنْ ذَلِكَ ، فَبَلَغَ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ فِي مَمْلَكَتِهِ عِبَادَتَهُ فَرَكِبَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ لَهُ : أَنَا فَلَانُ صَاحِبِ مَمْلَكَةٍ كَذَا ، عَلِمْتُ أَنَّ مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْقَطِعًا ، وَأَنَّهُ قَدْ شَغَلَنِي عَنْ عِبَادَةِ رَبِّي ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَنْتَ بِمَا صَنَعْتَ بِأَحَقِّ

(١) الأطواد : مفردا الطود : وهو الجبل . العسجد : الثمين من الجواهر وهو الذهب .

منى ، ثم خلى سبيل ملكه ، وتبعه فكانا يعبدان الله عز وجل وسألاه أن يميتهما جميعاً . قال عبد الله بن مسعود : لَوْ كُنْتُ بِمِصْرَ لَأُرْتِكُم قَبْرِيهِمَا بِالنَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

قال المؤلف : وفيه لفظ غير هذا لم أروه .

منظوم ومنتثور من الحكم الزهدية

روى أن سليمان بن عبد الملك^(١) قال لعمر بن عبد العزيز^(٢) حين أعجبه ما صار إليه الملك : يا عمر كيف ترى ما نحن فيه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذا سرور لولا أنه غرور ، ونعيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك ، وفرح لو لم يعقبه ترح^(٣) ، ولذات لو لم تقرن بأفات ، وكرامة لو صحبتها سلامة .

فبكى سليمان حتى اخضلت^(٤) لحيته ، ومما قلت في ذلك :

فِي الْوُصُولِ وَكَوَادَةِ	يَا مُتَعَباً كَدَّهَ الْحِرْصُ
وَمَا حَسَوَى وَأَقْبَادَةَ	لَوْ حُزِنْتَ مَا حَازَ كَيْسَرِي
وَمُعْتَمِدَةً بِالزَّرَادَةِ	مَا كُنْتَ إِلَّا مُعْتَسِي
إِلَّا لِأَهْلِ الْإِرَادَةِ	لَمْ يَنْصَفْ فِي الْأَرْضِ عَيْشٌ
فَإِنَّمَا الزُّهْدُ نَفْسًا	فَرَضَ عَلَى الزُّهْدِ نَفْسًا

(١) سليمان بن عبد الملك : ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، الخليفة أبو أيوب القرشي الأموي ، بويع بعد أخيه الوليد سنة (٧٦هـ) . وكان له دار كبيرة مكان طهارة جيرون ، وأخرى أنشأها للخلافة بدرج محرز ، وعمل لها قبة شاهقة صفراء وكان ديناً فصيحاً مفوهاً عادلاً محباً للغزو ، يقال : نشأ بالبادية . مات بذات الجنب ، ثم كفن في عاشر صفر سنة (٨٩هـ) وصلى عليه عمر بن عبد العزيز . سير أعلام النبلاء (٦٧٣)

(٢) عمر بن عبد العزيز : ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد ، العابد السيد ، أمير المؤمنين حقاً أبو حفص ، القرشي الأموي المدني ثم المصري ، الخليفة الزاهد الراشد أشج بن أمية ، وكان من أئمة الاجتهاد ، ومن الخلفاء الراشدين رحمه الله عليه ، كان حسن الخلق والخلق ، كامل العقل ، حريصاً على العدل بكل ممكن ، مناقبه^(٣) كثيرة جداً جداً مات سنة (١٠١هـ) . سير أعلام النبلاء (٦٧٥) .

(٣) أي حزن .

(٤) أي نددت ولبثت .

عَزَاذَةٌ (٥)

حذار حذار من دار هي شر دار ؛ حرامها سم نافع وعذاب واقع ، وحلالها نصب واسع وأمل شاسع :

ذُنَيْبُكَ دَارٌ غُرُورٌ
وَدَارُ كَسْبٍ وَكَذِبٍ
وَرَأْسُ مَالِكَ نَفْسٍ
وَلَا تَبْغَهَا بِأَكْبَلٍ
فَإِنَّ مَالِكَ سُلَيْمَانَ
وَمِنْ قَصِيدَةٍ لِي فِي مِثْلِهِ :

فَأَنَا بَدَارُ تُرْدِي مُجَارِيهَا
وَتَسْتَفِزُّ الْحَلِيمَ عَنِ مُنَنِ
مَنْ رَامَ إِقْبَاءَهَا عَلَيْهِ قَقْدُ
أَسْرَعُ مَا تَنْتَجِي بِوَالِقِيهَا
فِيهِ عَلَيْهَا وَارْتَبَا بِنَفْسِكَ عَنْ
وَأَشْفَقَ عَصَا بَيْعِهِ الْغُرُورَ لَهَا
عَمْرِي لَقَدْ أَنْذَرْتُ مُنْذِرَةَ
مُؤْتَنَسَةً أَنَّهُهَا مُؤْتَنَسَةٌ
فَالْأَمْنُ وَاللَّهُ مِنْ فَجَائِعِهَا

ومن ذلك :

رَاعَاكَ الزُّهْدُ لَمَّا الزُّهْدُ رَفُضَ
ثُمَّ لَا تَمَكُنُ الزُّهَادَةُ فِي الْمَقْدِ
مَرْحَبًا بِالْكَفَافِ عَفْوًا هَدِيئًا
لِقَضْوَى يُلْهِي وَيُطْغِي وَيُرْدِي
سَوْمَ حَتْمًا بَلْ فِي ضُرُوبِ التَّعْدِي
ثُمَّ لَا مَرْحَبًا بِحِرْصٍ وَكَدِّ (٩)

(٥) رَضٌ : طَوْعٌ .

(٢) مَسْتَعَارَةٌ : مَسْتَرْضِيَةٌ .

(٣) شَارَةٌ : اللَّيَاسُ وَالزَّيْفَةُ .

(٤) تُرْدِي : تَهْلِكُ . تَخْفِرُ : نَقْضُ الْعَهْدِ وَالْغَدْرِ .

(٥) اللَّيَاقُ ، مَفْرَدُهَا اللَّيَاقَةُ : وَهِيَ الشَّرُّ .

(٦) قَتَهُ : تَرَفَعَ . ارْتَبَا : اَعْلَوْ وَارْتَفَعُوا .

(٧) الصَّرَاحُ : أُنْيَةُ الْخَمْرِ .

(٨) الْقَوَارِعُ : نَوَائِبُهَا وَنَوَائِلُهَا .

(٩) الْكَفَافُ : مَقْدَارُ الْحَاجَةِ بِدُونِ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ .

هَذَا عَلِمْنَا وَقَدْ رَأَيْنَا كَثِيرًا وَسَمِعْنَا مَنْ حَازَ جَدًّا بِجَدِّ
 لَا يَزَالُ الْحَرِيصُ يَسْتَأْمَهُ الْجِرْ صُنُّ بِنُصْبٍ مِنَ الشَّقَاءِ وَتُكْدِ (١٠)
 ثُمَّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَعَدَّى قَرَأَ مَا لِحُكْمِهِ مِنْ مَرْدٍ
 قيل : إن حرقة بنت أبي قابوس ؛ النعمان بن المنذر (١) استأذنت بالقادسية (٢)

على سعد بن أبي وقاص (٣) رضي الله عنه ، فأذن لها ودخلت في جواربها وعليهن
 المسموح ومقطعات السلب السود (٤) ، فرأى منظراً شنيعاً ولم تتميز له حرقة من
 جواربها لمشاركتها إياهن في الزي ، وكن رواهب فسلمن عليه ، فقال : أيتكن
 الحرقة ؟ فقالت الحرقة : هأنذا نيه . فقال : أنت حرقة ؟ .

قالت : نعم فما تكرارك استفهامي أيها الأمير ؟ إن الدنيا دار قلعة وزوال ،
 فما تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالاتاً ، وتعقبهم حالا ، وإنما كنا ملوك هذه
 الأرض ، يجبي إلينا خراجها ، ويطيئنا أهلها مدى المدة وزمان الدولة ، فلما
 أدبر الأمر صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا ، وشتت ملانا ، وكذا الدهر
 يا سعد ، إنه ليس من قوم أتخفهم بحبرة (٥) إلا أردفهم بعبرة (٦) ، ولا أسعفهم

(١٠) يستأمه : يحكمه ويصرفه .

(١) النعمان بن المنذر : أشهر ملوك الحيرة وآخرهم ، مدحه الشاعر التابعه الذبياني كثيراً ،
 عرف بأبي قابوس . البداية والنهاية (١٨٥/٢) .

(٢) القادسية : موقع في العراق غربى النجف ، واسم معركة المسلمين والفرس في أيام عمر
 ابن الخطاب رضي الله عنه ، في سنة (١٦هـ) وقاتل المسلمون يومئذ قتالاً عظيماً وانتصروا
 فيها . معجم البلدان (٩٣٥٠) .

(٣) سعد بن أبي وقاص : الأمير أبو إسحاق القرشي الزهري المكي ، أحد العشرة ، وأحد
 السابقين الأولين ، وأحد من شهيد بدرأ والحديبية ، وأحد السنة أهل الشورى ، وأول من
 رمى بسهم في الإسلام ، وكان جيد الرمي . ومن مناقبه : أن فتح العراق كان على يديه ،
 وهو كان مقدم الجيوش يوم وقعة القادسية ، ونصر الله دينه ، ونزل سعد بالمدائن ، ثم
 كان أمير الناس يوم جلولاء ؛ فكان النصر على يده ، واستأصل الله الأكاسرة . ومات
 سنة (٥٥هـ) . سير أعلام النبلاء (٥) .

(٤) المسموح : يلبس من نسيج الشعر على البدن تعشفاً وقهراً . السلب : ثياب المأتم السود .

(٥) النعمة والعطية والسرور .

بفرحة إلا أعقبهم بترحة ، ثم أنشدت :

فَبَيْنَمَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَّصِفُ
فَأَنفًا لِنُنِيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلَّبُ تَارَاتِ بِنَا وَتَصَرَّفُ

وبينما الحرقة تخاطب سعدا رضي الله عنه ، دخل عمرو بن معدى كرب ^(١) الزبيدي على سعد فنظر إلى الحرقة فقال لها : أنت حرقة التي كانت يفرش لك الأرض من قصرك إلى بيعتك بالديباج ^(٢) المبطن بالوشى ^(٣) ؟ قالت : نعم ، فقال لها عمرو : فما الذى دهمك ، وأذهب محمودات شيمك ، وغور ي نابيع نعمك ، وقطع سطوات نعمك ؟ .

فقالت : يا عمرو إن الدهر عثرات تلحق السيد من الملوك بالعبد المملوك ، وتخفص ذا الرفعة وتنزل ذا النعمة ، وإن هذا أمر كنا ننظره ، فلما نزل لم ننكره .

ثم إن سعدا سألها عما قصده فاستوصلته ، فأجزل صلتها وقضى حوائجها ، ولما فصلت عنه سئلت ماذا لقيت ؟ فأنشدت :

صَانَ لِي ذِمَّتِي وَأَكْرَمَ وَجْهِي إِنَّمَا يُكْرِمُ الْكَرِيمَ الْكَرِيمُ

روضة رائقة ورياضة فائقة

قال محمد عفا الله عنه : نذكر إن شاء الله من زهد الملوك ما يناسب الخير النبوي الذى قدمناه آنفا ، وهو زهدهم فى الملك ، مع نبذهم له وتخليهم عنه ، ولا نعرض لذكر من زهد فى نعيم الملك ولم ينبذه ؛ لاستقلاله بأعباء سياسة الخلق بالحق ، وأعباء الزهادة والعبادة مع ذلك . كداود وسليمان والنبیین

(٦) الدمعة من الحزن والبكاء .

(١) عمرو بن معدى كرب : شاعر وفارس مخضرم ، أسلم وارتد ثم أسلم مرة أخرى وقد

شهد موقعة القادسية . معجم البلدان (٤٠٣٩) البداية والنهاية (٣٩/٧ ، ٤٦) .

(٢) الديباج : كلمة فارسية وهو الثوب الحرير .

(٣) الوشى ، مفردا وشاء : وهو نقش الثياب .

عليهم السلام ، وكأبى بكر^(١) وعمر في الخلفاء المهديين ، فإن هذا الفن يخرج عن هذا التبويب ولا يندرج في هذه الأساليب .

فمن ذلك ما بلغنى أن معاوية بن معاوية رحمه الله كان على صغر سنه عالماً عاملاً ، متبتلاً متقللاً ، قد ذلل نفسه بالتقوى وعدل بها عن زينة الدنيا ، أفضت الخلافة إليه وسنه سبع عشرة سنة ، فخامرته^(٢) الندم على تحملها ، وأطلع أهل بيته على ذلك ، فكرهوه ، ولبثوا عشرين ليلة يناظرونه فيه وينهونه عن إظهار كراميته له .

فلما رأوا أنه غير منته ، وأنه لا بد له من خلع نفسه ، دعووه إلى أن يعهد إلى أحد منهم ، فقال : كيف أتجرع مرارة فقدما وأتقلد بيعة عهدا ، ولو كنت مؤثراً بها أحدا لآثرت نفسي .

ثم إنه خطب الناس ، فنكر لهم عجزه عن القيام بأمرهم وعهد إليهم أن ينظروا لأنفسهم ، وأطهم من بيعته وانصرف ، فأغلق بابيه ولم يأذن لأحد ، فلبث بذلك خمسا وعشرين ليلة ثم لحق بالله تعالى .

وقال على بن الجهم^(٣) في ذلك من أرجوزة تاريخية :

ثم لبنة مئبة المضعف كان له دين وعقل يعرف
ودام شهراً ثم نصف شهر وجاءه الموت عزيز الأمر
وترك الناس بغير عهد توقياً منه وفضل زهد^(٤)

قال محمد : كلام على بن الجهم هذا يتضمن أن معاوية مات ولم يخلع نفسه ، والمعروف ما ذكرته ، وإنما قال مئبة ؛ لأن الناس استضعفوه لتركة الخلافة ، ولذلك كنوه أبا ليلي وهي كنية المستضعف ، وبلغنى أن الأمر الباعث

(١) أبو بكر الصديق : عبد الله بن عثمان ، أبو قحافة ، خليفة رسول الله ﷺ . الإصابة (٩٦٣٦) أسد الغابة (٥٧٣٧) الاستيعاب (٢٩١٧) .

(٢) أى دخله وخالطه .

(٣) على بن الجهم : شاعر عباسى معاصر لأبى تمام كان فى زمن المتوكل على الله ، ومدحه وأجزل إليه المتوكل العطاء الكثير . البداية والنهاية (٣٦٥/١٠) .

(٤) توقياً منه : أى خوفاً منه .

له على الزهد فى الخلافة والنبذ لها ؛ أنه سمع يوماً جاريتين له تتلاحيان^(١) وكانت إحداهما بارعة الجمال ، فقالت الأخرى : لقد أكسبك جمالك كبير الملوك ، فقالت لها الحسناء : وأى ملك يضاهى ملك الحسن وهو قاض على الملوك ، فهو الملك حقاً؟ .

فقالت لها الأخرى : وأى خير فى الملك وصاحبه إما قائم بحقوقه وعامل بالشكر فيه ، فذلك مسلوب اللذة والقرار ، منغص العيش، وإما منقاد لشهواته موثر لذاته ، مضيع للحقوق ، مضرب عن الشكر ، فمصيره إلى النار ؟ فوقعت الكلمة من نفس معاوية موقعاً مؤثراً ، وحملته على الانخلاع عن الإمرة .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : كان عدى بن زيد العبادى التميمى^(٢) ، قد دخل بلاد الروم رسولا لملك الفرس ، فاقنيس من علومهم ، وقرأ الكتب ، وكان ذا مكانة من ملك الفرس وكاتباً وترجماناً ، وكان أبوه زيد واليا على الحيرة^(٣) ، وخليفة المنذر بن ماء السماء^(٤) ، فكان عدى بن زيد عند ملوك الحيرة من لحم^(٥) ؛ لأجل ما ذكرناه فى أعلى المراتب .

قالوا : حضر يوماً عند النعمان بن امرئ القيس بن عدى ملك الحيرة وهو بالخورنق ، والخورنق قصر قد قدمنا ذكره ، فأشرف النعمان على ما حول الخورنق وذلك فى فصل الربيع ، فتأمل ملياً ، ثم أقبل على عدى بن زيد ،

(١) أى تتشامتان وتتلاومان .

(٢) عدى بن زيد العبادى : ابن الحمار التميمى النصرانى ، جاهلى ، من فحول الشعراء ، وهو أحد الفحول الأربعة الذين هم : هو وطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص وعقمة بن عيدة . وقال الحافظ الذهبى : ذكرته للتمييز . سير أعلام النبلاء (٦٧٢) .

(٣) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف وبالحيرة الخورنق بقرب منها ، وكانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية من زمن نضر ثم من لحم النعمان وآبائه . معجم البلدان (٤٠٣٩) .

(٤) المنذر بن ماء السماء : هو ابن امرئ القيس بن النعمان ، وماء السماء هى أمه ، وكانت تسمى مارية . وهو من ملوك اليمن ، ودعى ذو القرنين . مفاتيح العلوم (٦٩) .

(٥) لحم : قبيبة عربية قحطانية . سكنت شمال شرق الجزيرة العربية ، وهى أساس دولة المناذرة الذين استوطنوا الحيرة . معجم البلدان (١٤٠/٣) .

فقال: يا عدى أكل ما أرى إلى نفاذ وزوال ؟ .

فقال عدى : قد علم الملك أن الأمر على ما ذكره .

فقال النعمان : وأى خير فيما يفنى ويبيد ؟ ثم قل ما لبيت أن تتصّر وترهب
وساح في الأرض .

وقيل : بل كان معجبا بالزهر المسمى شقائق النعمان^(١) وإليه ينسب ؛ لأنه
كان يمنع رياضه ويحميه ، وأنه قصد يوما من أيام الربيع غيب سماء^(٢) شقيقة
قد كساها ذلك النور ، والشقيقة : رملة مستطيلة ؛ فلما عاين تتضد^(٣) ذلك النور
في منابته ، وقنوّ حمرته^(٤) ، وخضرة سوقه ، وتموجه بهبوب النسيم عليه ،
وتناثر قطر الندى من أرجائه ، رأى منظرا بهيجا ، فأمر فبسط له بإزاء تلك
الشقيقة بساط موشى بالحرير فكأنما كان روضة مختلفة بأصناف الزهر ،
ونصبت عليها قبة من الديباج الأحمر قد شحنت من المقاعد والحشايا
والنمارق^(٥) والمساند بما يضاهاها ويجانسها ، ولبس من الحرير المصبوغ
بالبهرمان ، وهو المعصفر^(٦) أفضل ما يمكنه ، وجلس في قبته تلك مواجها
للشقيقة ، وحوله ندماؤه وملهوه وعنده عدى بن زيد ، فشرب وطرب ودبت فيه
الراح^(٧) فارتاح .

ثم أقبل على عدى فخطبه بما ذكرناه آنفا ، فلما سمع عدى مقالته اهتبل
فرصته ، فراجع بما ذكرناه ، وأزمع الزيادة في إيقاظه من غفلته ، فأمله حتى
انقضى أربه من مجلسه ذلك ، وركب فسايره عدى إلى أن مر بقبور بظاهر
الحيرة .

فقال عدى : إنها تقول : أربها الركبُ المخنون^(٨) على الأرض المجدون ،

-
- (١) شقائق النعمان : هي زهور ربعية ذات لون أحمر جميل .
 - (٢) أى ينظر إلى سماء الزهرة .
 - (٣) أى ظهر ولمع .
 - (٤) أى سواد حمرته من شيبكتها .
 - (٥) النمارق ، مفردا النمرق : وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .
 - (٦) أى بصيغة صفراء للون .
 - (٧) الخمر .
 - (٨) الغافل فاقد الوعي .

كما أنتم كنا وكما نحن تكونون .

فلما سمع النعمان مقالته راجعته فكرته السالفة ، وظهر عليه الانكسار ، ثم مر بشجرات متناوحات^(١) ، بينهن ساحة فيها عين جارية ، فقال عدى للنعمان :
أتدري ما تقول هذه الشجرة أبيت للعن ؟ فقال لا ، ما تقول ؟ .

فقال عدى : إنها تقول :

مَنْ رَأَى فَلْيَحْذُثْ نَفْسَهُ	أَنَّهُ مُوقِبٌ عَلَى قَرْنِ الزَّوَالِ ^(٢)
وَصُرُوفِ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا	وَلَمَّا تَأْتِي بِهِ صُفْمُ الْجِبَالِ
رَبٌّ رَكِبَ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا	يَقْتَرِبُونَ الْخَمْرَ بِالمَاءِ الزَّلَالِ ^(٣)
وَالْأَبَارِيقُ عَلَيْهَا قَدِمَ	وَعِنَاقِ الْخَيْلِ تَرَهُو فِي الْجَلَالِ
عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيثَ حَسَنِ	أَمِنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عَجَالِ
ثُمَّ أَضْحُوا عَصْفَ الدَّهْرِ بِهِمْ	وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُرِيدِي بِالرَّجَالِ
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالْفَتَى	فِي طِلَابِ الْعَيْشِ خَالًا بَعْدَ حَالِ ^(٤)

ويقال: إن ذلك كان بينهما في موطن آخر وفيه إما أشار به إلى قبور كما أشار له لولا .

قيل : فلما بلغ النعمان قصره قال لعدى : إذا كان السحر فاحضرنى فإن
عندى خيرا أطلعك عليه ، فلما كان السحر حضر عنده ، فوجد النعمان قد لبس
مسحا^(٥) ، وأخذ أهبة السياحة ، فودعه وذهب ولم يعلم له خبر .

وعندى أن المترهب السائح هو النعمان بن المنذر الأكبر ، ولم يدركه
عدى؛ ولكن ذكره في شعره ، والذي أدركه النعمان بن المنذر الأصغر ، وأن
عديا نبهه بما حكى عنه تنبيها اقتضى تنصره لا سياحته ، بل هو الذي قتل عديا
وبقى في ملكه إلى أن قتله كسرى ، والله أعلم أى ذلك كان .

وبالجملة ففي ذلك قال عدى بن زيد :

أَيْهِيَ الشَّامِئُ الْمُعَيَّرُ بِالدَّهْرِ	أَنْتَ الْمُنْبَرُ الْمَوْقُوسُ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْأَيَّامِ	أَمْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورٌ
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ أَخْلَضْنَ أَمْ مَنْ	ذَا عَلَّيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرٌ ^(١)

(١) متقابلات .

(٢) قرن الزوال : أى على أهبة الرحيل .

(٣) أناضوا : أقاموا بالإبل فى مكان ما وأبركوها . الزلال : الماء العذب الصافى .

(٤) الودى : الهلاك .

(٥) المسح : كساء من الشعر يلبس للدلالة على التقشف والزهد .

(٦) المنون : الموت لأنه ينقص العدد ويقطع المدد .

وَأَنَّ أُمَّ أَيْمَنَ قَبْلَهُ مَنَابُورُ
 رُومَ لَمْ يَتَّقْ مِنْهُمْ مَذْكَورُ
 تُجَبَّى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ^(٧)
 سَأَ فَلَاطِيْرُ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ^(٣)
 مَلِكُ عَنَهُ قَبَائِهُ مَهْجُورُ
 رَقَا يَوْمًا وَاللَّهُدَى تَبْصِيْرُ
 لُكُّ وَالْبَحْرُ مُعْرَضُ وَالسُّدَيْرُ^(٤)
 طَةُ شَيْءٌ إِلَى الْمَعَاتِ يَصِيْرُ^(٥)
 مَتَا وَارْتَهُم هُنَاكَ الْقُبُورُ
 فَأَلْوَتْ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ^(١)

أَيَّنَ كَيْشَرَى كَيْشَرَى الْمَلُوكِ أُنُوشِرُ
 وَبَنُو الْأَصْفَرُ الْمَلُوكِ مَلُوكِ الْمَلُوكِ
 وَأَخُوكَ الْحِصْنُ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَلَاةُ
 شَادَاةُ مَرَمَرًا وَجَلَّاهُ كَلَاةُ
 لَمْ يُهْبَةُ رَبِّبَ الْمُنُونِ وَيَادَاةُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخُورْتِيقِ إِذْ أَشْنَاةُ
 سَرَّةُ مَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمُ
 فَارَعَوَى قَلْبُهُ وَقَالَ وَمَا غِيْبُ
 ثُمَّ بَعَدَ الْعُلَاءِ وَالْمَلِكِ وَالسَّلَاةُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقًا جَفَاةُ

روضة راقية ورياضة فائقة

حكى أن ملكا من اليونانيين قام من منامه في بعض الغدوات ، فأنته قيمة
 ملبسه بثيابه فلبسها ، ثم ناولته المرأة فنظر فيها فرأى شبيبة في لحيتته ، فقال :
 هات المقراض^(٥) يا جارية ، فأنته به فقص الشبيبة ، فناولها الجارية ، وكانت
 ليبية ألبية ، فوضعتها في كفها وأصغت إليها بأذنها ساعة ، والملك يتأملها فقال
 لها : ما تصغين ؟ .

فقالت : استمع إلى ما تقول هذه الشعرة التي عظم مصابها بمفارقة الكرامة
 العظمى حين سخطها الملك فأقصاها .

(٧) دجلة : نهر بغداد بالعراق . معجم البلدان (٤٧٠٩) . الخابور : مدينة لطيفة على
 شاطئ الفرات لها بساتين وحدائق ، وبها مات مسلمة بن عبد الملك ، وكان يلقب
 بالجرادة الصفراء . وقيل : هو اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض
 الجزيرة ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من البلاد قرقيسياة
 وماكسين والمجلد وعربان . معجم البلدان (٤٠٥٥) للروض المعطار (٢١١) .

(٣) الكلس : ما يقوم به الحجر والرخام ونحوهما .

(٤) السدير : نهر بناحية الحيرة . وقيل : قصر قريب من الخورنق كان النعمان الأكبر اتخذه
 لبعض ملوك العجم . معجم البلدان (٦٣٢٥) .

(٥) ارعوى : رجح عن الجهل .

(٦) الصبا : ريح شرقية لطيفة يحبها العرب . والذبور : ريح غربية مقابلة لريح الصبا .

(٥) المقراض : وهو ما يقطع به ، وهو شفرتان ، أى المقص .

فقال لها الملك : فما الذى سمعت من قولها ؟

فقالت : زعم قلبى أنه سمعها تقول كلاما لا يجترىء لسانى على النطق به
لاقتاء سطوة الملك .

فقال لها : قولى على حال أمنة وعدم تَوَقُّ ، ما لزمتم أسلوب الحكمة .

فقالت : إنها تقول : أيها الملك المسلط إلى أمد قصير ، إنى كنت ظننت بك
البطش بى والاعتداء على ، فلم أظهر على سطح جسديك حتى بضت ،
وحضنت بيضى حتى أفرخن ، وعهدت إلى بناتى فى الأخذ بثأرى عهدا ، وكان
قد خرجن فجعلن الأخذ بثأرى منك إما باستئصالك ، وإما بتتخييص لذتك
وتحيف قوتك حتى تعد الهلاك راحة .

فقال لها : اكتبى كلامك هذا ، فكتبته له فتصفحه مرارا ، ثم نهض مبادرا
فأتى هيكل^(١) من الهياكل التى يعظمونها ، فنزع عنه ملابس الملك فتزيا بزى
النسائك .

وبلغ ذلك أهل مملكته ، فبادروا إليه ، وطلبوه بالعود إلى محل ملكه وتدبيره،
فامتنع عليهم وسألهم إقالتة وتمليك غيره ، فامتنعوا عليه وهموا بامتحانه ، فأصلح
بينهم النسائك على أن يتركوه فى ذلك الهيكل يعبد ربه ، ويستكفى لما يستشار فى
مثله من أمور رعيته ، ويلى غيره ذلك بنفسه ، فلبث على ذلك إلى أن هلك .

روضة رالقة ورياضة فائقة

بلغنى أن ملكا من ملوك اللان^(٢) كان كافرا شديدا العتو والكبر ، حديث
السن مستحكم الغرة ، وكان إذا ركب لم يستطع أحد أن يرفع صوته إلا بالثناء
عليه والمدح له والشكر لإحسانه ، وكان له وزير نصرانى مؤمن يكتم إيمانه،
ويتحين وقتا يمكنه فيه دعوة ذلك الملك إلى الله .

فركب الملك يوما فسمع شيئا قد رفع صوته لبعض شأنه ، فقال للشرطة :
خنوه ، فلما أخذوا الشيخ قال : ربي الله .

فقال الوزير للشرطة : خلوا عنه ، فخلوا عنه ، فاشتد غضب الملك على

(١) موضع فى صدر الكنيسة يقرب فيه القربان ، وهو التمثال .

(٢) اللان : بلاد من الصين .

وزيره ولم يمكنه الإنكار عليه في ذلك المقام ؛ لتلا يظهر للناس أن الوزير يخالفه فيما يأمره به ، وسكت ليوهم الناس أن الوزير إنما أمر بما أراده الملك .
فلما انصرف الملك إلى مستقره أحضر الوزير فقال له : ما دعاك إلى مناقضة أمرى بمشهد من عبيدى ؟

فقال له الوزير : إن لم يعجل الملك أريه وجه نصحى وإشفاقى ، وحوطتى عليه فيما أتيته .

فقال له الملك : فإنى لا أعجل عليك .

فقال : أريد أن يحتجب الملك فى مجلسه هذا ويكون بحيث يرى ويسمع من حجابيه . ففعل الملك ذلك ، ثم إن الوزير أحضر قوساً صنعها للملك بعض خدمته وكتب الصانع اسم نفسه عليها ، فناولها غلاماً بحضرتة ، وقال للغلام : إنى محضر صانع هذه القوس فإذا حضر وأقبلت عليه بالمحادثة ؛ فاقرأ الاسم الذى على القوس جهراً ؛ حتى تعلم أن صانعها قد سمعك ثم اكسرها .

وحضر القواس وفعل الغلام ما أمره به الوزير ، فلما كسر القوس لم يتمالك صانعها أن ضرب الغلام فشجه^(١) .

فقال له الوزير : ويحك أتضرب غلامى بحضرتى ؟ فقال القواس : إن القوس عملى أيها الوزير ، وهى فى غاية من الحسن والجودة فلاى شىء كسرها؟

فقال الوزير : لعله لم يعلم أنها عملك ، فقال : بلى ، لقد أخبرته بأنها عملى .

فقال الوزير : كيف تخبره ؟ فقال : هذا خطى يدك عليها ، وقد قرأه وأنا أسمع ، فصرف الوزير القواس ، ثم أقبل على الملك فقال له : قد رأيت وجه نصحى وإشفاقى عليك بما كان منى ، وإن الملك لما أراد أن يسطو على الشيخ أخبره الشيخ أن الله ربه ، فخفت على الملك أن يبطش به رب الشيخ وليس يقوم لبطشه شىء ، فقال الملك : وهل للشيخ رباً غيرى ؟ فقال الوزير : ألم يره

(١) جرح رأسه وكسرها .

الملك شيخا والملك شاب ؟ فهل كان هذا الشيخ قبل أن يولد الملك لا رب له ؟
فقال الملك : لا ، بل كان أبو الملك ربه .

فقال الوزير : فما بال المربوب بقي بعد هلاك ربه ؟ .

فقال الملك للوزير : قد قدحت في كبدي بزند غير صالدة^(١) ، ولقد علمت
الآن أنه يجب أن يكون للملك أو المملوك رب لا يزول ؛ فهل تعرفه وتكلمني
عليه؟

فقال الوزير : نعم إنى أعرفه ، فقال الملك : دننى عليه أكن لك تبعا ما
بقيت .

فقال الوزير : أما دلالتك عليه فأول ما يجب لك على ، وأما اتباعك لى
فلئن فعلته فإنما تتبع عبدك الذى يقبك بمهجنته ما يريبك ، ثم إن الوزير تلتف
فى دلالاته على الله سبحانه ، وشرح الله صدر الملك لقبول ذلك ؛ فأمن بالله
سبحانه .

ثم قال الملك : أما لربنا خدمة إذا أحسنها عبده حظى بذلك عنده ؟ فقال له
الوزير : بلى إن له وظائف عبادة أمر بها خلقه ورضى لهم فعلها ، ووعدهم
عليها رضوانه والقرب منه والكرامة ، وذكر له الصلاة والصيام وخير ذلك من
شرائع المسيح عيسى عليه السلام ، فجعل الملك يرتاض بها حتى رسخ فى
علمها ، وتمرن على العمل بها .

ثم إنه قال للوزير : مالك لا تدعو الناس إلى الله كما دعوتنى ؟ فقال له :
أيها الملك إن اللان أمة ذات قلوب قسية ، وفهوم قصية^(٢) ، ونفوس حصية ،
ولست آمنهم على دمي إن تقوه لهم بذلك فمى ،

فقال الملك : إنى فاعل ذلك إن لم تفعله أنت ، فقال له الوزير : ليعلم الملك
أنهم إن لم تردهم هيبتة عنى لم تردهم عنه ، وسأجعل نفسى وقاءً لنفسه ، وأنهم
سيقتلونى لا محالة ، فلا يجترئ الملك بمثلها بعدى .

ثم إن الوزير استدعى إلى داره وجوه تلك المملكة ونوى تدبيرها، وولاية

(١) الزند الذى لا يورى ناراً . أى غير صالدة .

(٢) أى بعيدة .

أحكامها وأهل النسك والحلم منها ، فلما اجتمعوا إليه في داره ، قام فيهم خطيباً بالدعوة إلى الله سبحانه ، فثاروا إليه فقتلوه ، وصاروا إلى الملك فأخبروه بما كان من الوزير ومنهم ، وقالوا له : إنا ظننا أن الملك على مثل رأيه ويجب معرفة ما عنده ، فأرضاهم بالقول ، وأدهن لهم وصوب رأيهم في قتل الوزير ، فأنصرفوا راضين عنه ، وقل ما ليث ذلك الملك أن نبذ ملكه ولحق بالرهبان فكان معهم إلى أن توفاه الله عز وجل .

روضة رائقة ورياضة فائقة

قيل : إن أردشير بن بابك بن ساسان ولد له - في حداثة سنه وبدء أمره - ولد فسماه بابك باسم أبيه ، فنشأ رائع الصورة بارع الجمال ، فشغف به أردشير حبا ، وألزمه فيلسوفا ماهرا في الفلسفة راسخا في الحكمة متحليا بالزهد ، وسأله أردشير أن يـخـذـه ولدا ، فاقتطعه الفيلسوف عن أبويه ، وولى تربيته وتدريبه ، إلى أن اضطلع بأعباء علوم الفلاسفة وتبوأ مثوى الزهد .

ولما سعى أردشير لضم كلمة الفرس ، فتم له المراد وأعطاه الطوائف القيادة ، استمد رأى ولده بابك فيما نابه من المهمات ، فظفر منهم بأضعاف أمنيته ، إلا أنه كان لا يشاهده ويشافهه إلا بغض إليه الدنيا تصنيفا لمعايبها ، وتعريفا بشوائبها ، وتخويفا من عواقبها ، فكان أردشير منغص المسرة بولده لأجل ذلك .

وكان يقال : من صحب الملوك بما يكرهونه فلا ينكر هوله .

وكان يقال : قل ما يتوفر فكر الملك على أمر واحد حتى تطول عنايته به على الأفراد ، وذلك لكثرة ما تتجانب خواطره من الأمور حتى إذا توفر فكره على أمر وأجمع له ، أوشك أن يحكمه ، فإذا رأته أجمع على أمر وتوفر عليه ، فلا تعرض له بغيره فتحول بينه وبين الفرصة التي بها ظفـره .

قيل : وكان أردشير يحتمل ذلك لولده شغفا به وتألفا عليه ، فقال يوما : يا بابك أتعرف أباك ؟ قال بابك : إن لي أيها الملك السعيد أبوين ، أبا كان علة كوني ، وأبا كان علة بقائي ، وأنا بهما عارف .

فقال له أردشير : صف لنا أباك الذي كان علة كونك .

فقال بابك ما معناه : إنه ملك ملأ العيون فهما ، والأسماع ثناء ، والصدر

هيبة ، والقلوب محبة ، ذو رافة شاملة وقضية فاضلة ، وسيرة عادلة ، وحزم أخاف قلوب المرييين في أجسادها كسيوفهم في أعمادها ، وأمن المرييين بين السباع الضارية والأفاعى الجارية ، فالأشباح^(١) رق لسيفه وحزمه ، والأرواح رق لسبيبه^(٢) وحلمه .

فقال أزدشير لابنه بابك : صف لى أباك الذى كان علة لبقائك .

فقال بابك ما معناه : إنه حكيم عرف فضيلة نفسه ، فكرمها وعنى بها ، فخدمها .

فقال أزدشير : أخبرنا عن كيفية خدمته لنفسه .

فقال بابك ما معناه : إنه تأمل نفسه فرأها أرضا أريضة أنيقة ، بكل خير خليفة ، ذات مياه نابغة وأشجار كارعة^(٣) وثمار يانعة ، وظل ظليل ونسيم طليل ، إلا أنه ألقاها^(٤) مأوى لأسد الغضب ، ونمور الجهل ، وذئاب الغدر ، وخنزير الشره ، وكلاب الحرص ، وسباع الحمق ، وحيات الظلم ، وعقارب الحسد ؛ فنفى عنها هذه الآفات كلها وحصنها منها فصارت خيرا لا شر فيه .

فلما سمع أزدشير مقالة ابنه علم أنه معرض عن الملك ، زاهد فيه نابذ له ، فسأه ذلك ، ثم أقبل عليه ، فقال له : يا بابك إن الحكمة لا ترضى لمن اتصف بها أن يكون مربوبا مقهورا مع تمكنه من أن يكون ربا قاهرا .

فقال بابك : ما أجدر الملك السعيد بالصدق وأحراه بالإصابة ، ولكن إن أذن الملك السعيد ضربت له مثل الرب القاهر والمربوب المقهور .

فقال أزدشير : هات ما عندك من ذلك .

فقال بابك : ذكروا أن فيلا كان مكرما عند بعض الملوك وكان ربيبا أنيسا أديبا ، وأنه تصيد لذلك الملك فيل وحشى ، فعسرت على السؤاس^(٥) رياضته وتعذر عليهم تأنيسه ، فرأوا أن يجعلوه مع ذلك الفيل الأنيس الأديب ليأنس به

(١) الأشباح ، مفردهما الشبح : وهو الشخص .

(٢) السيب : العطاء والكرم والمال .

(٣) الكارعة : النابتة على الماء .

(٤) أى تعوده وأنسه .

(٥) السؤاس ، مفردهما : سؤاس وهو معلم ومؤدب الدواب .

ويقتبس من أدبه ففعلوا ذلك به فازداد نفارا وتوحشا ، فبالغ السواس في عقوبته ، والتضييق عليه والتجويع له ؛ ليذل فنال منه الجهد ، وأن الفيل الريبب قال له يوما: لقد جنيت على نفسك شرا ، وأسأت النظر لها بجهالك ، ولو علمت ما يراد بك من الخير لم تفعل .

ولكنه كان يقال : العزة باب تحجب الأبواب عن صواب الصواب .

وكان يقال : الجاهل ميت الأحياء لتهوره وفساد تصوره .

وكان يقال : لا تبح كرامتك غير طالبها كما لا تتكح كريمتك غير خاطبها .

فقال الفيل الوحشى للريبب : ما الذى يراد بى ؟ قال : يطيب علفك^(١) ، ويستعذب موردك ، وينظف مسكنك ، ويوكل بك خدمة يكلونك^(٢) ، ويراعون شئونك ويجعل لبروزك أوقات معلومات منتظرة ، يحشد الناس لها ؛ فتجلل الديباج ويضرب بين يديك آلات تهيج الطرب ، وتبعث على الاختيال ، ثم تبرز مكرما معظما لا تعارضك دابة ، ولا تهب عليك للهون هابة .

فقال الفيل الوحشى للريبب : لأختبرن ما ذكرت لى ، فنزع عن توحشه ونفاره وتأتى لما يراد منه ، فكرم ونعم وخدم وعظم ، ولما أظلم يوم الزينة بولغ فى تكرمته وتنظيفه ، وجلل بالديباج ، وشد على ظهره سرير مزين وصعد عليه المقاتلة عليهم الدروع والخوذ ، وبأيديهم عمد الحديد ، وركب على عنقه دارع^(٣) بيده كلاب وألبست فطسته الزرد^(٤) ، وشد على طرفها قائم سيف كبير ، وقبض سواسه على نابيه من عن يمين وشمال ، وبأيديهم عمد الحديد ، وعليهم الدروع ، وضربت بين يديه الطبول والصنوج^(٥) ، وسار على تلك الحال حتى بلغ منه المراد ،

فلما عاد إلى مأواه قال لذلك الفيل الريبب : قد اختبرت حقيقة ما حدثتني

(١) ما تأكله الدابة .

(٢) أى يحرسون لك مواضع طعامك .

(٣) أى من يرتدى الدرع .

(٤) الزرد : الدرع يتداخل بعضها فى بعض .

(٥) الصنوج ، مفردا الصنج : وهى آلة للطرب لها أوتار .

عنه ورأيت زيادات أحببت أن أسألك عنها .

قال : ما هي ؟ .

قال : ما كانت تلك الأتقال التي حملت على ظهري ؟ .

قال الربيب : أولئك المقاتلة على سرير ومعهم آلات القتال .

قال : فما ذلك الذي سترت به فنطستي ، والذي صير على طرفها ، وما

أراد القابضان على نابي والراكب على عنقي ؟ .

فقال له الربيب : أما الذي سترت به فنطستك فدرع تحصنها ؛ لأنها مقتل

، وأما الذي ربط إليها فسيف يضرب به في العدو ، وأما القابضان على نابيك

فإنهما يذبان عنك الأعداء ، أو يعينانك على الإقدام ، وأما الراكب على عنقك

فبيديك الوجه الذي يراد منك سلوكه .

فقال الفيل الوحشي : لأمر ما طيب علفي واستعذب موردي ، ونظف بدني

وسكني ، ونوّه باسمي وجُمّل ملبسي ، وإني لأرى أمرا لا يقوم خيره بشره ،

ولا يفى نفعه بضره ، وبعد فلاكونن من أحرص الحراس على الخلاص .

وأنه كان يقال : ليس العاقل من انتقاد لشهواته وخدم سوى ذاته ،

وكان يقال : من عنى بغير نفسه فقد بسط عليها ضره واستبطل لها ضره ،

وكان يقال : إذا كانت الحاجة تستعيد المحتاج لمن احتاج إليه بقدر حاجته

فالناس عبيد الدنيا وأعبدهم لها أوجههم إليها .

وكان يقال : إذا كانت العبودية كناية عن خدمة المعبود والحاجة إليه ،

فأعبد العبيد ثلاثة : الملك ، والمحب ، والمنعم عليه ؛ لاستيلاء العبودية على

ظاهريهم وباطنهم ، والملك أعبد الثلاثة ؛ وذلك لأن الرعية تستخدم باطن الملك

وظاهره في تدبيرها وتأديبها ، وصونها من عدوها وعونها على مصالحها ،

وردع ظالمها ونصر مظلومها ، وتأمين سبلها ، وسد ثغورها والإعداد لما

ينعشها في الجيوب^(١) ، ولما يحصنها في الحروب ، وجباية^(٢) فضول أموالها

وصرفها في صلاح أحوالها ، وحسم أسباب هيجها ، وإزاحة علل فتنها وهرجها

(١) الجيوب مكان انقطع عنه المطر فيبست أرضه .

(٢) أى جمع وضم .

، هذا مع شدة حاجة الملك إلى رعيته فى صون نفسه وتنفيذ أمره وإمحااض
نصحه ودفع عدوه ،

فلما سمع الفيل الربيب مقالة الوحشى ، تبين أنه أولى منه بالعزة والتهور
وقساد التصور وقال : بحق قالت العلماء : الجهل يحجب العيان ويقلب الأعيان

وقالوا : لا يزال المخطيء مرجوا ما لم يخامره الإعجاب بخطئه ، فإذا
أعجب حجب .

ثم قال للوحشى : إني أكافئك على نصحك إياى ، وتبصيرك لى بأن أفتح
لك باب الحيلة فى نجاتك ؛ لأنى أبصر بأخلاق الإنس وعاداتهم وأهدى إلى وجه
الخلاص منه ، وسأتبعك وأكون خادما لك ما بقيت .

ثم إنهما اتفقا على أن يتظاهرا بالدُّخُول وهو داء يصيب الإبل والفيلة فى
أعجازها ، فإذا قامت ارتعدت أفخاذها حتى تكاد أن تسقط ، فتعالج بالفصد^(١)
وتحمل على السير الهون .

فلما تظاهرا بذلك وسارع السواس إلى مداواتهما ، وأخرجوهما إلى
الصحراء فسيروهما ، فلما بَعَدَ الفيلان عن العمارة وأمكنتهما فرصة الهرب شدا
فلحقا بالقبيلة المتوحشة ، فهذا أيها الملك السعيد مثل ما ذكرت .

فلما وعى أزدشير مقالة ولده بابك أطرق مغموما متفكرا فى أمره ، وقد
يئس من ما يريد منه ، ثم إنه نهض وأمر بابك بالتباعد ، فاتبعه حتى أدخله
بيوت أمواله ومستودعات ذخائره ، فجعل يريه إياها وينبئه على مزاياها ، حتى
أتى على آخرها ثم أقبل عليه فقال له : يا بابك لمن تترك هذا ، تتركه لمن هو
أحب إليك من نفسك وأحق بها منها ؟ .

فقال له بابك : إن أذن الملك السعيد ضربت له مثلا فيه جواب ما سألتنى
عنه. فقال له أزدشير : هات ما عندك من ذلك .

فقال بابك : ذكروا أن راعيا كان يرعى بقرأ على أهل قرية فيحسن لبقرهم
السراح والمراح ، فلبث بذلك برهة طويلة من الزمان ، وهم به مغتبطون وعليه
مثنون ؛ لما يعرفونه من بركة سعيه وتثمير رعيه ، فكانوا لا يسألونه عن شيء
من أمر بقرهم التى أسلموها إليه رضى به وطمأنينة إلى أمانته وكفايته .

(١) الفصد : شق العرق ليخرج منه الدم الفاسد .

وكان يقال : الموثوق مرموق ، والأمين بالمودة قمين^(١) .

وكان يقال : الإحسان والأمانة مملقان ، بكل لسان نافعان ، عند كل إنسان .
قيل : وكان الراعي يأوى عند المقييل^(٢) إلى صومعة^(٣) راهب فيقيل في ظلها ، ويكثر التأوه والأنين لما يناله من النصب فيما يعانيه ، وكثر ذلك منه على الراهب إلى أن خامرته له رقة ، فاطلع عليه يوماً فقال له : أيها الراعي مالى أسمعك تكثر الأنين والتأوه؟

فقال الراعي : ذلك لما أتجشمه^(٤) من حفظ هذه البقرة ، والذنب عنها وتتبع المراعى الخصيبة بها ، فأنا أقوم من ذلك بما يعجز عنه غيرى ، وأحمل على نفسى المشقات فى حصوله .

فقال له الراهب : وما الذى دعاك إلى الإضرار بنفسك وإصلاح سواها ونفسك أقرب إليك وأحق بسعيك ؟

فقال الراعي : إنى لو لم أفعل ذلك ما بلغت هذه البقرة من السمن والوفور ما ترى ، ولقد كانت يوم وليت أمرها قليلة العدد كثيرة العجف^(٥) بكية^(٦) الضروع ، لا تزين فناء ولا تملأ إناء .

فقال له الراهب : لقد حدثت عن مسألتي حيدة من لم يولها إقبالا ولم يلق لها بالا ، إنى إنما سألتك عن سبب حملك على نفسك لغيرها وإيثارك من سواها بخيرها ، فأخبرتني بشديد عنائك وسديد اعتنائك ، فأخبرنى الآن عما أفادك حميد سعيك وسديد رعيك .

فقال الراعي : أفادنى الغنى بهذه البقر ؛ لأنى أكل من لحوم ما سقط منها ما شئت ، وأطعم ما شئت ، وأتصرف فى ألبانها وغير ذلك من منافعها تصرف المالكين ، وأنتجع بها من الأرض حيث شئت ، فهى على الحقيقة لى وببدي .

(١) أى خليق وجدير .

(٢) وقت القيلولة (الظهيرة) .

(٣) المكان فى الجبل يسكنه الراهب بقصد الخلوة للعبادة .

(٤) أى أعانيه وأتكلفه .

(٥) العجف : الضعف والهزال .

(٦) أى قليلة اللبن .

فقال له الراهب : هكذا زعم راهب كان ذا بله^(١) ثم صحح عنده بطلان زعمه.

قال الراعى : أخبرنى عن ذلك .

فقال الراهب : إنه كان سائح مترهب فمر فى سياحته بدير كان حسن البناء، فنتلمت^(٢) حيطانه ، وهو بمكان طيب نزه^(٣) ، وبين يديه أرض أريضة فيحاء ذات ماء عذب ، وفى ذلك الدير نفر من ضعفاء الرهبان ومساكينهم ، فأعجبه الدير وأوطنه ، وكان قوى البدن جلدا معمارا ، فأصلح ما تتلم من جدران الدير، وعمر الأرض التى عنده فاحتقر سواقيها وأجرى ماءها ، وغرس فيها صنوف الأشجار، فدرت منافع الدير ، وقصده الرهبان فأوطنوه ، وسادهم ذلك السائح واتخذ العبيد والدواب ، وآلة عمارة الأرض ، واستضاف إلى أرض الدير ما جاورها، وغرس فيها من الكروم والزيتون واللوز شيئا كثيرا ، فعظمت المنافع وكثرت الجباية ورغب السائح فى جمع الدنيا ، واتخذ كنزا نفيسا فى أقرب مدة .

وكان يقال : المال كالماء فمن استكثر ولم يجعل له مسرىا يتسرب فيه على قدر الحاجة - غرق به .

وكان يقال : المواساة فى المال والجاه عوذة بقائهما .

ولما عامل الراهب السائح من عمر معه الدير بالحرمان ، واستأثر نونهم بالمال، أكثروا شكائهم ، ففتحت القالة فيه ، واجترأ عليه من كان يهابه ، وأفضت الحال به إلى مكاشفته ، فجاهروه ودعوه إلى الإنصاف والمواساة فيما بين يديه .

فقال لهم : كيف أعطىكم مالى الذى كسبته بكدى واستفرغت فى تحصيله جهدى ؟ .

فقالوا : بل هو مال الله ولكل واحد منا فيه حق ، ولك الفضل علينا بتميمته وصونه .

فقال لهم : ستعلمون مال من هو ؟

(١) أى ذو ضعف فى العقل وعجز فى الراى .

(٢) أى حدث بها خلل وتصدع .

(٣) أى حسن المنظر .

ولما جن عليه الليل أمر عبده فعقروا ألف دالية ، وألف زيتونة ، وألف
لوزة^(١) ، فأصبحت مصرعة في أشنع منظر ، فأتوا السائح فأخبروه بما حدث ،
وهم لا يعلمون أنه هو الفاعل لذلك ، فزجرهم ، وقال لهم : إنه مالى فلا عليكم
منه بقى أو ذهب ، وعلموا أنه عمله ، فثاروا إليه وأهانوه وضربوه ثم طردوه ،
فخرج من الدير على الحالة التى دخله عليها .

فلما حصل بظاهر الدير سرح طرفه فيما كان عمره وغرسه ، فرأى منظرا
رائعا ، فتنفس الصعداء تحسرا على ذهاب شبابه وقوته وريعان عمره فيما لم
يجد فيه طائلا ، ثم كانت عاقبته إلى مزاولته والانسلال^(٢) منه على حال مهولة
وفاقة^(٣) وضعف .

فقال : بحق قالت الحكماء : الدنيا سبيل تُعبر ولا تُعمر ، وممر سالك ،
لا مقر بارك .

وقيل : الدنيا جسر من عبره باعتبار ؛ أفضى به إلى قرار ، ومن عبره
باغترار ، أفضى به إلى دمار وتبار^(٤) .

وقالوا : قريب سلبها من سلمها ، وخطفها من عطفها ، والعاقل من أهلها
من استعد لحيلها ، وليس الاستعداد كذلك إلا للتأهب لبغيها المكتوم وفراقها
المحتوم ، فالاستكثار منها نقيض ذلك .

وقالوا : إن الخروج من الدنيا ما لا تطيب به نفس ، ولكن قد تنتهى الرياضة
عليه باستشعار الزهد فى الفانى العاجل ، والاستكثار من العمل النافع فى الأجل

وقالت الحكماء : التمتع فى الدنيا يضاعف حسرة زوالها ، ويؤكد غصة^(٥)
اغتيالها .

(١) شجر مثمر من فصيلة الورديات شبيه بالشمش .

(٢) الخروج على خفية وغفلة .

(٣) الحاجة والعود .

(٤) فناء وهلاك .

(٥) الغصة : الضيق والحزن والهم . أى زوالها فجاءة .

ثم إن الراهب السائح عاد إلى سياحته ، فقلما لبث أن هلك .

قيل : فلما وعى الراعى مقالة الراهب ، وفهم ما ضربه له من المثل ، واستبصر فيما تضمنه من الحكم ، قال له : جزيت من ناصح خيرا ، فخذ الآن فى التصريح بحالى عندك ، فقد أدبتى كناياتك وهياتنى للقبول ، وجئت عن فطنتى صداء غرتى^(١) .

فقال الراهب للراعى : لقد أوضحت لك من غلطك ، فى دعوى ملك ما استرعيتَه ولتَمنت عليه ، وكشفت لك ما ستر عنك ، من قبح حملك على نفسك لغيرها ، معتاضا عن ذلك أعواضا قليلة ، وأعراضا مستحيلة ، فاردد البقر إلى ملاكها ، واعمل فى خلاص نفسك من السباع الضارية ، والأفاعى الجارية ، والكلاب العاوية ، والعقبان^(٢) المختلسة ، والشياطين الموسوسة ، والأشراك الخائلة^(٣) ، والسموم القاتلة لتتجو من البوار^(٤) ، وتعلوا إلى عالم الأنوار .

قيل : فلما انتهى بابك إلى هذه الغاية من أمثاله ، أمسك عن القول ، وأطرق أبوه أزدشير مفكرا متأملا ما تصرف فيه ولده من المقال ، وضربه له من الأمثال ، ثم نهض مضطرب البال ، مضرم البلبال^(٥) ، وخرج بابك من فوره فساح ، ولم يعلم أين طاح^(٦) .

قال المؤلف عبد الله الفقير إليه الغنى به - محمد بن أبى محمد بن ظفر - رحمه الله تعالى - : والحمد لله على ما أنهيت بغيه ، وما أردت إلى نهيه ، وأنا أعوذ بالله من عذاب الإعداب ، كما أعوذ به من حجاب الإعجاب ، واستكفيه عوكل السؤال ؛ كما استعفيه من عوكل الجواب^(٧) ، واستدفع به فساد الخطاب كما استدفع كساد^(٨) الصواب ، وأتوب إليه فهو رحيم تواب .

(١) الغرة : الغفلة وعدم الخبرة .

(٢) العقبان ، مفردهما عقاب : وهو طائر من الجوارح قوى المخالب يصيد الجرذان والأرانب .

(٣) أى الخادعة .

(٤) الهلاك .

(٥) مُدَّة الهم والحزن .

(٦) خرج وتاه .

(٧) الغول : الهلكة من حيث لا يدري يعنى فساد الجواب .

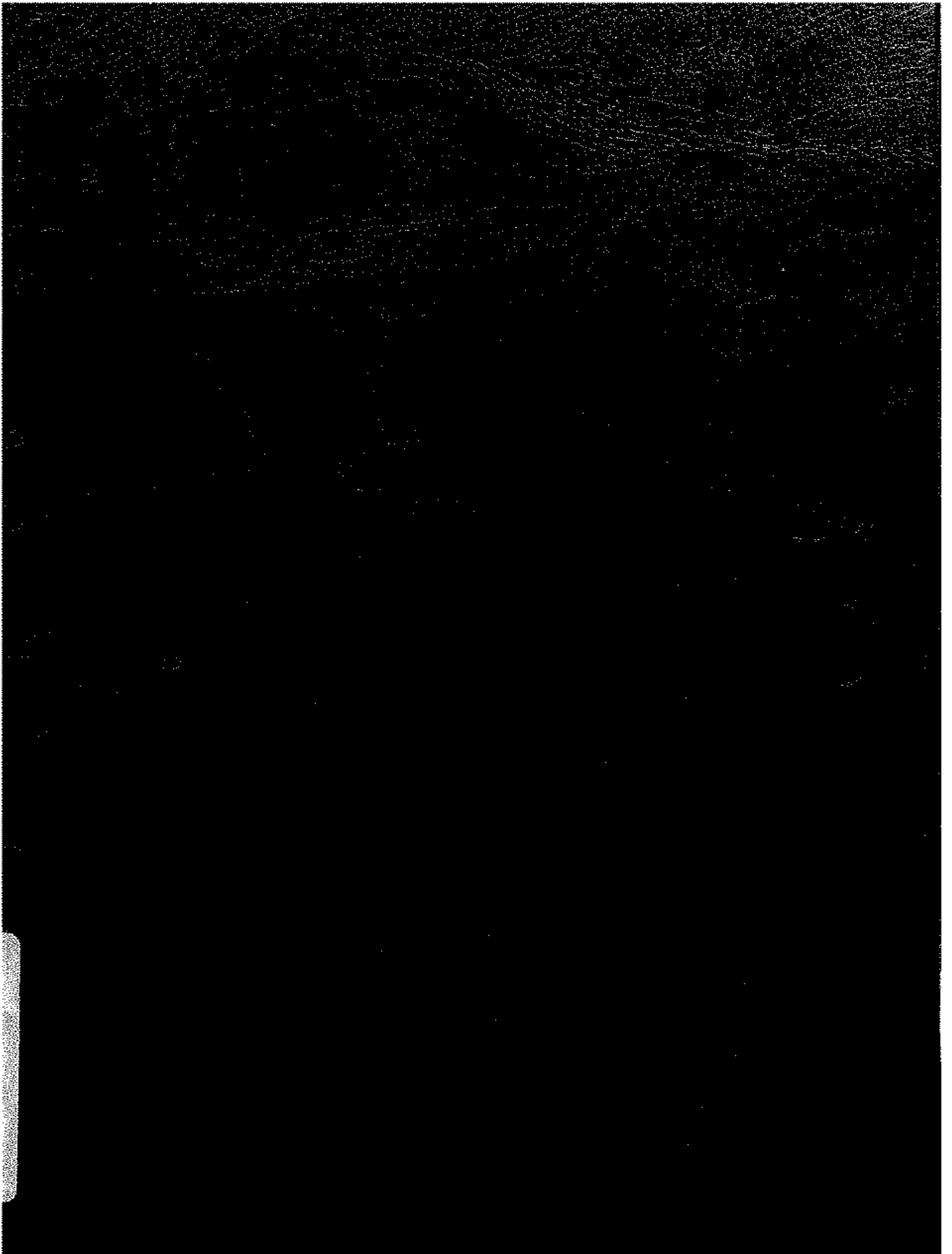
(٨) أى إنحراف .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المحقق
٩	الترجمة
١٥	مقدمة المؤلف
١٩	السلوانة الأولى
٢١	سلوانة التفويض
٢٤	أسجاع وأبيات حكمية فى التفويض
٢٥	روضه رائقة ورياضة فائقة
٣٧	روضه رائقة ورياضة فائقة
٤٧	السلوانة الثانية
٤٩	سلوانة التأسى
٥١	خبر نبوى فى التأسى
٥١	أسجاع وأبيات حكمية فى التأسى
٥٣	روضه رائقة ورياضة فائقة
٧٣	السلوانة الثالثة
٧٥	سلوانة الصبر
٧٦	خبر نبوى فى الصبر
٧٧	منثور ومنظوم من الحكم فى الصبر
٨٠	روضه رائقة ورياضة فائقة
٩٨	روضه رائقة ورياضة فائقة
٩٩	تفسير ألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر
١٠١	السلوانة الرابعة
١٠٣	سلوانة الرضى
١٠٣	خبر نبوى فى مثل ذلك
١٠٤	منثور ومنظوم حكم فى الرضى
١٠٥	روضه رائقة ورياضة فائقة

١٢٧	السلوانة الخامسة
١٢٩	سلوانة الزهد
١٢٩	خبر نبوى فى زهد الملوك
١٣٠	منظوم ومنتور من الحكم الزهدية
١٣٣	روضه رائقة ورياضة فائقة
١٣٥	روضه رائقة ورياضة فائقة
١٣٨	روضه رائقة ورياضة فائقة
١٣٩	روضه رائقة ورياضة فائقة
١٤١	روضه رائقة ورياضة فائقة
١٥١	فهرس الموضوعات

دار المصرى للطباعة
ت: ٢٨٣٦٥١١ - الهرم



To: www.al-mostafa.com